

الزيارة بأدرار: أشكال التميز و التمثلات الهويةانية

Visiting Adrar: Forms of Excellence and Identity Representations

بجيفد عبد القادر

جامعة وهران 2 محمد بن احمد

الملخص:

هناك أموال وخيرات معتبرة تحقق أو يمكن تحقيقها لصالح مقيمي الزيارات من خلال الزيارات والهبات التي تتدفق على ضريح الولي أو على دار الزاوية أثناء الزيارة بصفة خاصة وفي سائر الأيام بصفة عامة بحيث حتى وإن قلت فإنها لاتنقطع. فوجود هذه المصالح المادية على الأقل عند البعض يعد سبباً من أسباب استمرار الزيارات بالنسبة للجميع. كلمات مفتاحية: ولاية أدرار، أشكال التميز، التمثلات الهويةانية، الزيارة

Abstract

There are considerable funds and bounties that are achieved or can be realized for the benefit of the residents of the visits through visits and gifts that flow to the tomb of the guardian or to the corner house during the visit in particular and on all days in general so that even if I say it is not interrupted.

The presence of these material interests, at least for some, is one of the reasons for the continuation of visits for all.

Keywords: Wilayat Adrar, forms of excellence, identity representations, visitation

مقدمة:

تعرف ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين رواجاً كبيراً في ولاية أدرار، بمختلف قصورها وبلدياتها وحتى مراكزها الحضارية. وهي عبارة عن احتفال متعدد المظاهر والممارسات. ويقام في زمان ومكان معينين، تخليداً للذكرى ولي صالح وإحياء لمآثره ومناقبه.

للزيارة مكانة معتبرة في حياة الفرد الأدراري، ذلك لأنها منتشرة عبر الزمان والمكان وإقامتها لا تخص فصلاً أو موسماً معيناً وهي ليست حكراً على جهة أو ناحية ما من نواحي الولاية. فمتى زرت الولاية إلا وتسمع الحديث عن زيارة انقضت أو هي قائمة أو ستقام هنا أو هناك مهما عظم شأنها أو صغر، وما يلفت الانتباه كثيراً هو اهتمام الناس المفرط بها حيث يظهر ذلك جلياً من خلال الاستعدادات والتحضيرات الخاصة بها. والتضحية بالوقت والمال وبذل الجهد وزيادة الإنفاق والإقبال الكبير للناس عليها.

زيادة على ذلك، يوجد للزيارة أثران كبيران: الأثر الأول هو تخصيص قسم من المسكن للضيوف ويكون عادة على الواجهة، ويحتوي على ضروريات الحياة ويسمى محلياً "بالقوس" أو "بيت الضيوف". أما الأثر الثاني أن موعد الزيارة أصبح محطة زمنية حاسمة في حياة الناس. تحدد أوقات العمل وأوقات التفرغ والراحة. كما تحدد أوقات السفر وأوقات البقاء بالبلدة وحتى أوقات الرجوع إليها.

ولما كان الإنفاق على الضيوف في زيارات توات على خلاف "وعدات" الشمال وباقي المناطق الجزائرية، يقع جزء كبير منه على عاتق المضيفين، فإن هذه الخاصية لوحدها كفيلاً بأن تجعل الباحث يدرس هذه الظاهرة برؤية مغايرة عن دراستها في مجتمعات أخرى.

ومن الخصوصيات الأخرى التي تجعل هذه الظاهرة جديرة باهتمام خاص هي طبيعة التركيبة الاجتماعية للسكان المتميزة بالاختلاف والتنوع. ومالها من علاقة تأثير وتأثر محتملة مع الزيارة. إذا لا نتصور نحن شخصياً إمكانية إيفاء هذه الظاهرة حقها من الدراسة إلا إذا تم تناولها في إطار هذا الواقع الاجتماعي الصامت وبكل جوانبه التفصيلية.

إن الحقيقة الاجتماعية القائمة بمنطقة توات والمبنية أساساً على التفاوت تقريباً في كل شيء تجعلنا نواصل النظر إلى هذا المجتمع بنظرة انشطارية، أي اعتباره مجتمعاً منقسماً على نفسه إلى شطرين. يختلف كل واحد منهما عن الآخر في المراتب والأدوار الاجتماعية الخاصة به وكذا في الرأسمالات المادية والرمزية. ومن ثمة فإن الاختلال واللاتوازن يكون أيضاً على مستوى القوى والسلطات. وإذا كان هذا الأمر يقتضي انقسام المجتمع إلى طبقتين: طبقة حاكمة وطبقة محكومة. طبقة مهيمنة وطبقة مهيم عليها،

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهويةية

فإن من شأن الأولى أن تهتم بكل ما يضمن لها الاستمرار في الإمساك بزمام الأمور. ولعل من اهتمام الثانية أيضاً أن تفكر في كل ما يخلصها من سيطرة الطبقة الأولى. وهذا الاتجاه واضح بشكل كبير بمنطقة توات. بل في ازدياد يوماً بعد يوم، وإذا سلمنا مبدئياً بأن مجتمع الدراسة هذا ليس مجتمعاً تراتبياً ولا هرمياً، للزم الأمر أن يكون الجميع وخاصة الطبقة المحكومة مسلمين كل التسليم وخاضعين لسلطة وإرادة الجماعة الحاكمة. والنتيجة أن يظهر المجتمع كوحدة متماسكة ومتجانسة. لكن هذه المواصفات وإن بدت سطحياً خاصة لمن ليست له دراية بالمنطقة إلا أنها في حقيقة الأمر مجرد مظهر خارجي لا أكثر.

ببساطة، فمادام التمايز يصعب الحياة العامة للسكان بطابع خاص وفي مختلف مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والترفيهية والرياضية والسياسية وغيرها، أليس من الممكن أن نجد تفسير المسار منتهجا مع ظاهرة "الزيارة"، ذلك أنه لم يبق أي شيء إلا ووجدناه موظفاً إما من أجل استمرار الوضع القائم أو من أجل الثوران ضده بغية تحقيق أهداف وإنجاح إستراتيجية كل طرف.

وفي خضم سياق هذه الأفكار، نتساءل بدورنا :

. ما هي مبررات بقاء "الزيارة" وتعاضلها بالمنطقة وزيادة مظاهرها الاحتفالية والتخليلية ومستوى إقبال الناس عليها؟

. من يقوم بالزيارة؟ من يحضرها؟ وما هي الأهداف والمصالح من ورائها؟

الافتراض:

يمكن تفسير استمرار الزيارات في إطار البنية الاجتماعية المتنوعة للسكان وهرمية النظام الاجتماعي القائم. يتفرع عن هذا الافتراض الفرضيات التالية:

. تستخدم الزيارة من أجل إحكام سيطرة فئة معينة والحفاظ على مكانتها.

. تستخدم الزيارة من أجل التحرر والتخلص من قيود وسلطة الفئة المهيمنة.

. تعد الزيارة مناسبة للتنافس بين الفئات من أجل إثبات الوجود والتعبير عن الانتماء الهوياتي.

أساس الزيارة بأدوار مجتمع محلي يعتمد على الدين الشعبي الذي هو مزيج بين العادة والعبادة، بين العقيدة والثقافة المحلية المتشابكة من عادات وتقاليد اجتماعية، تزوجت وتعايشت مع العقيدة وأصبحت جزء منها في ظل انتشار الطرق الصوفية، كما يلاحظ من خلال العديد من النماذج الثقافية الفنية التي تصاحب وتلازم الطقوس المتبعة ومنها: الحضرة⁽¹⁾، التي تظهر في أول الأمر على أنها مجرد أحد أنواع الرقص الشعبي أو أحد فنون الترفيه واللهو والتي تقدم نفسها من خلال شكلها الخارجي والمناسبة التي تقام

فيها وهي الزيارة أو يقدمها أصحابها على أنها كذلك، فما هي في حقيقة الأمر إلا أحد أقسام الذكر الثلاثة الرئيسية عند الصوفية.

. **ذكر الوقت:** وهو تلك الأورد التي يرددها المرید بعد كل صلاة من الصلوات الخمس.

. **ذكر الجلالة:** الذي يجب ترديده في عزلة تامة بحيث يعيد المرید من ذهنه كل انشغال بالدنيا من أجل الاستغراق في تأمل الحقيقة.

. **ذكر الحضرة:** وهو خاص بالمریدین الذين يكونون مجتمعين في مجلس تحت قيادة المرشد. وهو من أكثر أنواع الذكر استحقاقاً؛ فإذا استلهم الأتباع نفس الخاطرة الإلهية فإن جهودهم تتركز وتساهم في اختصار مسارهم الصوفي.

يبدو جلياً أن هذا التعريف ينطبق على النوع المشهور من الحضرة الذي يقام وقوفاً في الزيارات (الأتباع هم المشتركون في الحلقة والمتشابهي الأيدي الذين يرددون الله الله وبموجون يميناً وشمالاً. وأما المعلم فهو عادة المرابط أو الشريف الذي يترأس اللجنة المشرفة على تنشيط الحلقة والذي يقوم بإعطاء الكلمات الخاصة بالثناء على الله ومدح الرسول والصحابة والتابعين والأولياء) وينطبق أيضاً على النوع الثاني من الحضرة وهو الذي يقام جلوساً.

فإذا كان الشكل الأول هو المعروف بكثرة في الزيارات فإن الشكل الثاني يقل فيها ويكون موجوداً في المساجد لكن مع التخلي عن وسائل الطرب والإيقاع. إذ لا تزال بعض المساجد متمسكة بهذا النوع من الحضرة. بحيث طيلة فصل الشتاء وبعد صلاة الصبح من كل اثنين وخميس يمكث غالبية المصلين في المسجد لأداء ما يسمونه بالحضرة حضره مولاي الطيب التي هي عبارة عن منظومة شعرية من الأورد والأذكار تتلى جماعياً وفي الختام يتناول الحضور الوجبة التي يعدها أحد البيوت ويتم إحضارها إلى المسجد. ولتوضيح الأمر أكثر نضرب هذا المثال الخاص بمساجد أحد قصور قورارة حيث تقام هذه الحضرة في الموعد السابق الذكر ويواظب أغلب المصلين على حضورها كباراً وصغاراً. أي هناك انخراط شبه تام من قبل السكان في هذه الممارسة. فالقاعدة هي الحضور والاستثناء هو عدمه. يتم افتتاحها واختتامها من طرف شخص معين يشغل منصب مقدم القصر. وقبل الافتتاح يتم توزيع تلك المنظومة الشعرية في شكل أوراق مطبوعة على الحضور والأولوية للذين لا يحفظونها عن ظهر قلب وخاصة الصغار. وهذا ما يجعلنا نقول زيادة على غموض مثل هذه المفاهيم الصوفية عند العامة وعدم إدراكهم لحقيقتها وخاصة الأطفال إلا أنه يتم تمريرها وتلقينها لهم بما يمكن تسميته نوعاً من التنشئة الاجتماعية. وإن كان المقدم

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

وبعض المقربين منه يعرفون حقيقتها فإننا نجد الغالبية رغم جهلهم بما إلا أنهم يثنون أبنائهم على الحضور إليها وحفظها كما لو كانت واجباً دينياً أو جزءاً تابعاً للأذكار الواردة في السنة التي تقام عقب الصلوات. هناك تأثير قوي للطرق الصوفية وللاعتقاد في الأولياء على حياة التواتيين. ويتجلى هذا في مظاهر ومستويات مختلفة:

1. مناداة الأولياء والمشايخ

يلاحظ تداول هذا النداء عند الكبار الذين هم في سن ومكانة الأجداد، أما بالنسبة للنساء، فهذا الأمر منتشر بينهن بكثرة ويشمل حتى مرحلة الكهولة. نداء الأولياء هذا يتم بشكل يومي ومتكرر في عدة مواطن منها القيام، الجلوس، تغيير الوضعية من الاستلقاء إلى الجلوس. ونظراً لكثرة تلك المواطن فإنه يصعب تحديدها لأن هذا النداء يلجأ إليه المرء كلما أحتاج إلى من يستعين به ويخفف عنه آلامه أو يساعده على تفريغ كربه. كما أنه قد يصدر من الشخص بشكل تلقائي باعتباره متعوداً عليه. من هؤلاء الأولياء، نجد الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يكثر الناس من ذكره وخاصة النساء لأنهن يمرن بحالات وظروف خاصة أثناء الحمل مثلاً. ويستحضرن هنا ما حدث بينه وبين أمه وهو في بطنها. حيث نجاها من "السبع" لما تكلم وهو في رحمها وكذلك خفف عنها آلام الوضع عند ولادته. ولأن هذا الولي هو ولي قطب، إذا ما استعملنا التصنيف المعتمد بشأن الأولياء، فإنه يحظى عند الناس عموماً بحظوة خاصة. ومن الأوصاف التي يطلقونها عليه أنه غياث وأنه يحضر متى ذكر. فهو حسبهم قريب في النداء بعيد في الخطوه⁽²⁾. من بين الصيغ المستعملة اتجاه هذا الولي واتجاه غيره من الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية ومراكزهم هي:

● "يامولا عبد القادر الجيلاني، يا الشيخ مولا عبد القادر الجيلاني، يا والدين يا الأشياخ يا الشيخ مولا عبد القادر الجيلاني، يا مول النوبة، يا مالين النوبة، يا من راحت له النوبة، يا صاحب النعة، يا من حضرت له النعة، يا سكانينها يا عمارينها، يا رجالها ورجلاتها، يا رجال البلاد ورجلاتها" (تقال على سبيل المثال عند الدخول إلى قصر أو بلدة معينة) يا دار الضمانة...
من أطول هذه الصيغ هي الصيغة التالية:

● "يا دار الضمانة وما ضمنت يا مولاي عبد الله الشريف يا رجالها وماليها يا دار وازان يا دار مولاي التوهامي بحاميد الغزالي يا يزيد الوسطاني بامعروف الكلاخي (يقصد بع معروف الكرخي) والوالي والشيخ مولاي عبد القادر جيلاني يا عباد الله الصالحين بجاه الشرفه والشريفات..." (يقولها المقدم بعد الانتهاء من تبييض مقام الولي يوم الزيارة وكذلك تقولها النساء عند الدعاء لصاحب الصدقة أو المعروف...).

2. ربط الحركة والسكون بالأولياء.

تزرخ الحياة اليومية بعبارات وكلمات يفهم من معانيها أن الأولياء ورجال البلاد هم من يسمحون أو يرفضون تنقل شخص من مكان إلى آخر كالسفر إلى مكان العمل أو الدراسة أو التنقل لحضور زيارتهم وغيرها.

وفيما يلي نورد بعض الصيغ المستعملة في هذا الشأن مع ترجمتها إلى العربية وتبيان مواضع استعمالها:

الصيغة بالدارجة المحلية	بالعربية الفصحى	موضع استعمالها
رجال البلاد مازال ما طلقو سراحك مازال ما سرحوك	رجال البلاد لم يطلقوا سراحك بعد	عند العزم على السفر دون تحقيقه
هادوك ما طلقوه وهادو ما زقاو ليه	أولئك لم يطلقوه وهؤلاء لم ينادوه	عندما يطيل غياب شخص ما عن بلده أو عندما يعزم عدة مرات أن يزور بلده ولا يزوره
هو ما بغاك/ ما زقى ليك	هو لم يشأ حضورك/ لم يناديك	عندما تنوي أو تعزم على الحضور لزيارة ولي معين ولا ولا يتحقق لك ذلك

3. القسم بالأولياء.

تنتشر هذه الظاهرة بكثير لاسيما في أوساط العنصر النسوي وكذا الغار من الجنسين إلى سن 16 أي مع نهاية مرحلة المتوسط.

خصوصية الذاكرة الشعبية التواتية:

4. قصص الأولياء ومنشئهم

- بانديلو

هو أشهر أولياء السود بتوات. الشيء الذي يظهر من خلال زيارته.

- بن حمادي⁽³⁾، هو اسم ولي تقام له زيارة كبيرة بقصر المطارفة بلدية المطارفة دائرة أوقروت.⁽⁴⁾ وعن قصته يقال أنه كان عبد عند سيده وكان سيده يعلم به وزوجته لا تعلم. وكان يحضر الخطب من الغابة. وذات مرة أحضر قليلاً من الخطب ولم يكف فقالت له زوجة سيده أطفه الطعام برجليك ففعل. والنتيجة

الزيارة بأردار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

هي أن أكد له سيده باستحالة أن يخدم الولي ولياً غيره. فرمى بعكازه وقال اذهب وعمر في المكان الذي سقط فيه.

- الزيتوني

حسب ما استقيناها من أخبار من أعيان بقصر تاخفيف، ف"الزيتوني" كان عبداً عند سيده باحنيني الذي كان يدرس القرآن بقصر زاقلو. بينما عاش الزيتوني مع زوجة سيده المسماة "لالا فطيم بتاخفيف" يخدمها هي أيضاً وكان جزء من عمله هو خدمة البساتين. فكلما يرسم باحنيني حرف الرءاء في الألواح يخرج الماء عن مجراه أثناء قيام الزيتوني بسقي النبات والنخيل وهذا رغم بعد المسافة بينهما. إلى درجة أن كل منهما أصبح يتعمد ما يفعله. فباحنيني يتعمد جر الرءاء حتى يخرج الماء عن مجراه والزيتوني يتعمد استعمال الفأس بقوة أثناء تغيير مجرى مياه السقي حتى تتمحي كل الألواح التي كتبها سيده.

ذات مرة لم تجد "لالا فطيم" الحطب من أجل طهي الطعام واحتارت في أمرها كيف تفعل. فتدخل الزيتوني ومد رجليه تحت القدر وبعد انتهاء طهي الطعام أخرجهما دون أن يلحق به أي ضرر. أو كما قال أحد الرواة وهو كبير في السن أن مد الرجلين كان من أجل الإضاءة والوضوء. وفي مرة أخرى قالت لو أجد من يوصل هذا اللبن أو المردود لولدي في السودان لكافأته بكذا وكذا. فعرض الزيتوني نفسه عليها وفعلاً تولى تلك المهمة ونفذها في وقت وجيز جداً. وبناءً على القصتين الواقعتين التي عاشتهما لالا فطيم مع خادمها الزيتوني إضافة إلى المكاشفة التي وقعت بينه وبين سيده، فإن بداية الزيارة جاءت بتوصية من الزوجة التي حثت أولادها أن من أراد أن يتصدق عليها فليصدق على الزيتوني.

- بركة

هو ولي دفين قصر أغيل. كان عبداً عند أسياده وبالرغم من أن مخبرنا على صلة مباشرة بهذه الزيارة كونه مكلف بوضع الإناء الخاص بجمع النقود فوق ضريح الولي ويحتفظ به طيلة العام، فإنه لا يملك معلومات عن كيف حصلت الولاية لهذا الولي. واكتفى بالقول بأن الناس وجدوا فيه البركة فأقاموا له الزيارة.

- الدامسعود

هو ولي مدفون بقصر إقسطن بلدية دلدول دائرة أوقروت. قبره بارز على بقية القبور المحيطة به. عن تاريخه قال أحد السكان بتوكي بالبلدية ذاتها بأن أصله من هذا القصر وأعطانا لقبه. لكننا لم نستطيع التثبت من هذا الخبر. لما توجهنا إلى أحد المشرفين على إحدى الزيارات بقصر إقسطن قال لنا ربما كان

عبداً أو خادم عند ولي مشهور بالقصر نفسه (5). أما عن الولي فشهرته جعلت العبيد في المناطق المجاورة كالمطارفة وأوقروت يسمون اسم زيارتهم باسمه (6).

- باحمو وسليمان (7).

تعد هذه الزيارة الوحيدة من بين الزيارات السابقة الذكر التي لا ينتمي صاحبها لفئة العبيد. تقدم روضة هذا الولي نموذجاً عن الأولياء السود الذين لا يعرفون من خلال قبائهم أو مقاماتهم على غرار بن حمادي أو حتى من خلال أسمائهم (8)، وأما عن طريقة وصوله للولاية فأخبرنا أحد المشرفين على زيارته أنه أصبح ولي بعد أكله لثمرة سقطت في بيت الخلاء.

شكل الزيارة

يأتي العبيد من القصور المجاورة وحتى البعيدة نوعاً ما (9) يرقصون قرقابو من المساء إلى الليل وبعد الاختتام يتناولون العشاء في مكان خاص بهم. ومعزولين عن بقية سكان القصر والضيوف الذين يتناولون وجبة العشاء التي تكون على نفقة العبيد (10)، وبالطبع فإن هذا النوع من الزيارات يختمم بفاتحة قبل تناول العشاء أو بعده علماً أن هناك فاتحة خاصة بالعبيد لوحدهم، وبحسب خصوصية كل زيارة تتوقف بعض الطقوس الأخرى كتبييض الضريح وتليسه بقصر أغيل أو تبييضه بقصر تيلولين أو مجرد الذهاب عنده وقراءة الفاتحة والدعاء وأخذ البركة ووضع الزيارة في مكان مخصص في الضريح بإقسطن.

5- قواسم مشتركة لزيارات العبيد

يوجد جهل كبير بأنساب الأولياء السود وتاريخهم وحتى ذريتهم (11)، بل حتى أن أسمائهم ناقصة وغالباً ما تتكون من جزأين الجزء الأول هو خاص بالكنية : ابن مثلاً أو لقب فئة الانتماء وهو الدا. وكما وضعنا سابقاً فإن تمييز أولياء السود يكون حتى من خلال للقباب أو المقامات أو الأضرحة بحيث نجد الخاص بالسود متواضعة ومبنية بالطين.

الغرامة: هي قيام العبيد في قصر - مثلما هو في قصور لدول- أو مجموعة من القصور- مثلما هو في خط تيطاف-تيلولين- بالتنقل بين البيوت يقرؤون الفاتحة أمام مدخل كل البيت وفي المقابل يأخذون السميد، الدقيق، الحبوب، التمر، النقود أو غيرها بحسب استطاعة ورغبة أصحاب البيت. ويحملون معهم مسبقاً مجموعة من الأكياس والقفاف التي تفني بالغرض. وكل هذا التحرك يكون مصحوباً بالرقص الخاص بهم. بالنسبة للعبيد يعتبرون هذا العمل، الذي يقومون به مرتين في العام الأولى في الناير والثانية في مايو، بمثابة تلقيح للبلاد. أما عن مصير تلك الخيرات والنقود التي يجمعونها فهو إقامة الزيارة

الزيارة بأردار: أشكال التميز و التمثلات الهويةية

الخاصة بهم تكريماً لسيدنا بلال مثلما في تيطاف أو تكريماً لولي من أوليائهم: بانديلو، الدامسعود، ببركة، الزيتوني...

6- أهمية الزيارة بالنسبة للعبيد

تعد زيارات العبيد مناسبة كبيرة بالنسبة إليهم. ونظراً لحرصهم على استمرارها فإنهم لا يفكرون إطلاقاً في تحديدها زمنياً كباقي الزيارات. ولذلك يبقى موعدها متوقفاً على مدى استعدادهم لها. "هدي مضيئة كبيرة رانا نجومو باش تقطعو لها النهار مانجموش لاتمشي تنقطع. قال المرقص نتاع ابابلال كلها وخلص العيل النساء"

وترتبط هذه الزيارات ارتباطاً وثيقاً بالغرامة وتعد هذه الأخيرة مصدر دخل لها. حيث يتم الاحتفاظ بالتمر والزرع والدراهم التي تجمع فيها إلى حين موعد الزيارة. وهذا ما يفسر القيام بالزيارات دائماً عقب موسم الغرامة وليس قبله.

كما القيام بالغرامة يعد من بين عادات وتقاليد الأولين التي لا ينبغي التفريط فيها فكذلك الزيارة أيضاً. وهما أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر.

"القصدي لقينا الأولين البات لقيناهم يديروا هاد الشي اللي راهم يلمو" (12).

6-1. التكفل بالضيوف والمقيمين

ولأن المناسبة هي أولاً وقبل كل شيء مناسبة للعبيد من خلال شكلها ومضمونها: القائمين، المضيفين، أصحاب الفلكلور، فإنهم يحرصون كل الحرص على أن لا يستقبل أحد من أهل البلدة ضيفاً في منزله، بل بالأحرى أن لا يطبخ عشائه في منزله. فعشاء الجميع مقيمين وضيوف، ذكوراً وإناثاً هو على عاتق العبيد يوم الزيارة. فبقصر تيطاف مثلاً للنساء 12 منزلاً يتوجهن إليها ليتناولن وجبة العشاء ثم يأخذن معهن عشاء عائلاتهم. كما للرجال أماكن خاصة لهذا الغرض.

"نهار الزيارة الطيابة ماكانت قاع النساء يمشو للديار المعروفة 12 لدار." (13)

والأمر نفسه بالنسبة لقصر تيلولين حيث تظهر زاوية بانديلو قدرتها على استيعاب كل الزوار والضيوف القادمين بمناسبة الزيارة فضلاً عن تكفلها بكل العبيد الذين يأتون من مختلف المناطق والجهات: "يعملها من بشار إلى تمنراست جاو صحاب قرقابو ماكلتهم من عندنا واللي يكفيمهم من عندنا.. ويهمونا الضيافين وما نبعوهم يدخلو شي دار" (14).

وكذلك الحال بالنسبة لباقي زيارات العبيد في القصور الأخرى في قورارة كما في توات. حيث يعد إطفام كل أهل البلدة ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً وكذا الضيوف إحدى ميزات زيارات العبيد. ذلك لأنه في هذه المناسبات من يحضر الطعام هم العبيد فقط وبالتالي هم من يطعمون ويفعلون كل شيء بخلاف الزيارات الأخرى.

6-2. الإطعام كاستثمار

إضافة إلى كل ما سبق ذكره، يمكن أن نرسم مساراً لهذا الطعام وهو كالتالي: يبدأ في شكل تمور وحبوب ودرهم وغيرها تجمع من طرف العبيد أثناء الغرامة مقابل أدائهم الفاتحة أمام كل بيت. ثم يحتفظ بكل هذه الخيرات إلى قرب موعد الزيارة، علماً أن منها ما يأكل مخافة ضياعه ويعوض فيما بعد ويتحول الكل يوم الزيارة إلى طعام للناس. إنه من السهل على العبيد أن يقسموا كل ما جمعوه بينهم ويتحول هذا المسعى إلى حيلة يعززون بها أوضاعهم المادية. لكن الواقع بخلاف ذلك بكثير. فهم لا يفعلون ذلك بل زيادة عليه فهم يساهمون بحمص متساوية، تزيد أو تنقص بحسب الحاجة، في تلك النفقة.

فالتضحية بالمادي تشمل عدم الانتفاع بالخيرات المادية المجموعة والمساهمة الشخصية في الزيارة بغية الحصول على الرمزيات أو زيادتها. والمتمثلة في تقدير الناس لهم والنظر إليهم على أنهم أهل خير وبركة. على ما قاموا به من إكرام ونفقة وعلى حرصهم على راحة الجميع. وفوق هذا فإن هذه البركة ليست مستمدة من العدم وإنما مصدرها هو هذا الولي الذي تقام له الزيارة. ولا يهم إن كان الناس يعتقدون في حقيقته، والذي قد يسمى إما عيش أبابلال أو بابلال⁽¹⁵⁾، أو سيدنا بلال أو أي اسم آخر لولي ينتمي إلى فئتهم كالدا مسعود مثلاً. لأن وجود الزيارة يعني وجود البركة ولا بد لهذه الأخيرة من أناس تتجلى فيهم وينقلونها. وهذا بحد ذاته كاف في مثل هذه اللحظات لإعمال الخيال والعواطف وتقديم عملها على عمل العقل.

6-3. زيارات العبيد فرصة للتلاحم وإبراز الانتماء المشترك

لما كان الطعام، في الماضي، يقدم للضيوف فقط في زيارة با بلال مثلاً (وهكذا كانت بدايات جل الزيارات بما فيها زيارات البيض لأن الخير كما يقولون كان قليلاً)، وكان أهل البلدة ينتظرون ما يفضل

الزيارة بأردار: أشكال التميز و التمثلات الهويةية

عن الضيوف فلماذا كان يحضر هذا الضيف خاصة بعدما علم أن حضوره يقلل من فرص حصول أهل البلدة على قوت ليلتهم.

"كانوا يديروا 12 ماعون للعيش وصاحب البلاد ما ندوقوه. يجوا أصحاب القصور ويدخلو يتعاشو وإلا بقى شي يتقسم على أصحاب البلاد ف اليديين" (16).

عليه فإن أمثال هذا الضيف الذين كانوا يحضرون في السابق في زيارات العبيد، يمكن الجزم بأنهم كانوا يتشكلون بصفة أساسية من العبيد لأنهم معنيين أكثر بهذا الموعد من غيرهم. ونكون بهذا بصدد مخالفة معايير الحياة اليومية المبنية أساساً على القرابة الدموية والمصاهرة والجوار والقرابة الجغرافية، واستبدالها بمعايير مبنية على حياة ووحدة استثنائية أساسها التاريخ المشترك والمكانة الاجتماعية الممنوحة لهذه الفئة وكذا القرابة الرمزية. أي أن الأولوية تعطى للعبيد الوافدين والضيوف على حساب أبناء البلدة من مختلف الأصناف الأخرى بما فيهم السود الغير منتمين إلى هذه الفئة.

إنها وحدة الشكل والمضمون في الآن ذاته. فوحدة الشكل تتمثل في اللباس الموحد وانسجام الحركات وتناغمها وأداء نوع من الرقص الخاص وهو قرقابو. أم وحدة المضمون تتمثل في المعتقدات والأفكار التي يؤمن بها كل أفراد الجماعة والتي يستحضرها بقوة أثناء الرقص. لأن مثل هذه الاحتفالات تسمح بتركز أعضاء المجموعة وتستدعي الحماس. أين يختفي كل شعور فردي. فالتعامل مع نفس الكائنات واحترام نفس الأشياء وأداء نفس الطقوس يجعل أعضاء المجموعة يأخذون وعياً بانسجامهم كوحدة مرتبطة بنفس المقدسات (17).

وبسبب أن زيارة بانديلو هي الأشهر والأكبر من بين سائر زيارات هذه الفئة، فإن العبيد يحضرون إليها من مختلف قصور توات وحتى من خارجها ليؤازرون ويساندون إخوانهم الذين بدورهم يستقبلونهم استقبالاً خاصاً ويخصصون لهم إقامة منفردة (18). بحيث يكون كل العبيد بما فيهم أصحاب البلدة معزولين في مكان معين أين يتناولون وجبة العشاء. وعليه فإن هذا الواقع يبدو امتداداً لواقع آخر. فمثلما أن الذين كانوا يرقصون هم من العبيد فحري بهم بعد الختام أن يجلسوا في مكان خاص بهم.

ففي هذا اليوم لا فرق بين العبيد المحليين وضيوفهم. لأن الجميع يتقاسم الشعور نفسه. فاليوم هو يوم للعبيد أجمعين والمناسبة هي تخليد ذكرى أحد المنتمين إلى هذه الفئة. ومن هنا تتمحي الفواصل والمسافات. ولا يصبح للسؤال عن النسب أو البلد قيمة. فالشرط الوحيد هو أن تكون من العبيد.

"نهار اللي يجي شي عبد خاطي البلاد ما يقعد واحد يقول ليه ما عندك قرعتك ف البلاد" (19).

كما يمكن الحديث عن حجز الفضاء الزمني والمكاني لصالح العبيد. بحيث أن كل ما يجري في مكان وزمان

الاحتفال يكون تحت إشراف العبيد. فالساحة الرئيسية أو ساحة الرقص في القصر (بإقسطن، بتيطاف، بأغيل مثلاً) وأماكن إقامة الطقوس (الرحبية بتيلولين التي تعتبر أصلاً فضاءً جغرافياً للسود) تكون مقصورة على العبيد فترة الزيارة ولا يستطيع أحد أن يعتدي على قداستها. وهذا لأسباب واعتبارات ثلاث.

أولها أن الولي هو من العبيد وثانيها أن الذين يقيمون الزيارة هم العبيد وثالثها أن الضيوف الذين من المفترض أن يتوافدوا بكثرة ويتم الاستعداد لهم هم من العبيد أيضاً. وعلى ضوء الأسباب الثلاثة السابقة الذكر، يمكن تفسير هذا الاستعداد للتكفل بالعبيد. كما أن فيه دعوة لزيادة توافد العبيد وتماسكهم. خصوصاً وأنه كلما زاد العدد يزداد معه اختبار بنية العبيد المحليين. بحيث أن نجاحهم في التكفل بأقراهم وإخوانهم مأكلاً ومشرباً وإقامة يعد بمثابة نجاح للزاوية نفسها والقائمين والمتنمين إليها ومن ثمة ينتقل هذا النجاح ليشمل حتى العبيد الضيوف⁽²⁰⁾.

6-4. المساهمة المادية في الزيارة دعماً للانتماء المشترك

ترجع مصاريف زيارة بانديلو (أثناء الزيارة وقبلها بيومين) إلى تلك الصدقات والزيارات التي تستقبلها الزاوية في سائر الأيام أو في مناسبات خاصة ككثرة الحصاد مثلاً. فإضافة إلى الحبوب هناك من يتصدق باللحوم والتي تتمثل في الإبل والغنم والدجاج وغيرها. وفي حالات أخرى يتم التصدق بقيمتها النقدية. بالنسبة لهؤلاء المتصدقين فهم يأتون حتى من خارج البلاد: من السودان وتيميمون وغرداية، وعين صالح وبيشار وغيرها.

لكن هل دائماً المتصدقين أو المتبرعين هم متبركين بالولي؟ أليس أنهم يفعلون ذلك بغية إنجاح الزيارة لأن في إنجاحها مصلحة مشتركة بين مجموعة من الناس ليس بالضرورة أن يكون بينهم تقارب جغرافي وإنما الأساس هو التقارب الهوياتي.

فإذا ما قارنا بين المتصدقين من أهل البلدة الحاضنة للزيارة، نجد أن ما يتصدق به الأسود يفوق ما يتصدق به الأبيض. وهذا لأسباب عدة. منها أن النظرة المكرسة في المجتمع هي أن السود دائماً هم في حاجة للبيض سواء في الحياة أو في الممات. وأن البيض يتمتعون برأسمال رمزي يغنيهم عن اللجوء إلى غيرهم. وفي المقابل فإن السود في بحث مستمر لمحاولة تعزيز وجودهم وهويتهم⁽²¹⁾.

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

رغم أننا لم نجري تحقيقاً بشأن من يتبرع أكثر البيض أم السود في مثل هذه الزيارة وسائر زيارات السود، إلا أنه وبحكم معرفتنا بالأوضاع السائدة في المنطقة وكذلك بحكم مجريات المقابلة الخاصة مع شيخ هذه الزاوية، نستطيع أن نجزم بأن هذا الأمر لم يحدث ولن يحدث مادامت البنى والمركبات التي يسير عليها هذا المجتمع ثابتة ولم تتغير. كيف بمن يعتقد أنه أفضل منك ديناً ودنياً بلى حتى الواسطة بينك وبين الله أحياناً⁽²²⁾، أن يعترف لك أو يتقاسم معك نفس السلطات والقدرات والمزايا التي يختص بها هو؟ أما بالنسبة للمتبرعين من خارج الولاية فنحن نعلم مسبقاً أن في كل تلك المناطق يوجد بها السود. وهذا ما يرجح أن المتبرعين يكونون بنسبة كبيرة من السود. وإذا كانوا كذلك - وهذا ما نتوقعه خاصة وأن بعض تلك المناطق يحضر منها العبيد- فإن مقولة التبرك كدافع أساسي وربما وحيد تتراجع لتترك مكاناً للمساعدة والتآزر.

6-5. نصيب العبيد من الفاتحة والبركة والدعاء

كما لاحظنا في الفصول الأولى من هذا العمل، أن الفاتحة هي من اختصاص الشريف ثم المرابط وتتبع مساراً معيناً إلى أن تصل إلى السود. أما بالنسبة للبركة فإنها تبقى محصورة في الشريف، وإن انتقلت فهي تصل إلى المرابط فقط. زيادة على وجود شروط لهذا الانتقال (البركة والفاتحة معاً). ومع كل هذا تبقى كل المعايير قابلة للقلب. والنتيجة هي أن ما كان مقصوداً على جماعة بعينها في أغلب الأزمنة والأمكنة يصبح متاحاً ومرحباً به إذا صدر من قاعدة الهرم، ولكن في ظروف خاصة. ورغم أن الزمن هو للعبيد، ولا يمكن لأحد أن ينازعه في كل ما يدور فيه إلا بإرادتهم، فإنهم قد يتنازلون عن حقهم في رفع الفاتحة وتوزيع البركة المعنوية على الحاضرين عن طريق الدعاء لهم⁽²³⁾، غير أن هذا التنازل لا يكون أبداً بدون مقابل خاصة وأنهم لا يخفون بعض أهدافهم المتمثلة في رفع الدرجة وقبول الفاتحة (استجابة الدعوة).

وهكذا يكون مجرد إقرار الغير أمام المألأ لما يتصورونه عن أنفسهم يعد أمراً كاف ومؤشراً على بلوغ أحد الأهداف المرسومة. وأفضل هذا الاعتراف أن يأتي من بيت البركة نفسها أي من عند الأشراف أو المرابطين. الذين يطلبهم الدعاء من العبيد يؤكدون ولو لفترة من الزمن أن البركة واستجابة الدعاء هي عند غيرهم. أو بعبارة أخرى أن من راحت له النوبة في ذلك الوقت أو اليوم هو أحد العبيد الحاضرين أو الغائبين، الأحياء أو الأموات.

"الفاتحة علينا إلا ما تلقى الشريف ولا لكبير فينا قال فتحو يفتح المرابط".

"نهار نكملو قال فتحو بالشرفة، قال فتحو يا المرابطين الشعب قال ما كانو كل شي فيكم".

"قال قدر تتقدر لابد يسمى هذا الناس باش تطلع درجتهم وتتقبل فاتحتهم نهار اللي يعودو يديروا القدر. حتى هما الناس تولي تقدرهم حتى يولي هو داك الشريف يقولك فتح ويفتح ويقولك طلبو لنا مولانا هو راه يفتح ويقول طلبولنا مولانا راه ولا ظن فيك البركة. احنا ما عندنا شي حنا نطلبو مولانا وهما يطلبو من" (24).

7 . العبيد بين الوحدة والتعدد

لعل ما يجعل العبيد أكثر تمسكاً بانتمائهم هو خصوصية هذه الفئة المتمثلة في احتوائها على أغلب الأصناف الأخرى. من بينها الأشراف والمرابطين الذين يتواجدون في أعلى الهرم. "احنا روحنا العبيد كايين فينا اللي شريف كايين فينا المرابط كل رهط. كايين اللي شريف وماهو شريف كايين اللي شريف وراه هنا عبد" (25). ويستندون في تبرير هذه الخصوصية إلى الظروف التاريخية التي أنتجتهم، بحيث أن المتاجرة بالبشر لم تكن مقتصرة على صنف معين. وهكذا يتحول الأسياد في قومهم وذوي الشأن والجاه إلى مجرد خدام وتابعين لا غير (26)، ومادام الأمر كذلك، فليس من السهل عليهم التنكر لفئتهم والخروج عنها بغية البحث عن الجاه والشرف أو الرفعة أو النسب. وعليه فإن هذا التمسك يمكن ربطه مباشرة بوجود نوعاً من الاحتمال عن إمكانية الانتماء فعلاً إلى قمة الهرم لدى بعض العبيد أو الاكتفاء بوجود عبيد أشراف من بينهم يؤمنون لهم القدر والاحترام المطلوب من سائر الفئات الأخرى. كما يكفي لإضفاء نوعاً من الهالة والتقدير على أبناء هذه الفئة عموماً: "ممكن ادراج كايين اللي حر وما هو خير.."، أي أن التمسك بالعادات هو اعتقاد في إمكانية هذا التعدد ووجود الجاه والنسب

7-1. زيارة العبيد بين منطقيين

يتمسك العبيد بالقيام بالعادة نفسها التي كان يقوم بها آبائهم وأجدادهم، ولا يجروون على وقفها. غير أن هذا الأمر هو عام عند أهل توات. حيث أن من بين المبررات التي يقدمونها هي ضرورة الحفاظ على عادات وتقاليد الأسلاف. ويعتبر المثل الذي استدل به أحد الباحثين لتعزيز موقفه "اللي خلا ليه باه عتبة يطلعها" (27)، أحد الشواهد التي تتكرر على السنة التواتيين لتبرير بقاء واستمرار مثل هذه الأشياء.

بلا شك إن تمسك العبيد بالموثوثات يهدف إلى إعادة إنتاج المجتمع ولو جزئياً. وبالطبع فإنهم لا يقصدون بهذا التصرف إظهارهم على أنهم يشكلون الدرجة الأخيرة في السلم التراتبي والنظر إلى أنفسهم على أنهم أقل شأنًا من الآخرين (إعطاء الآخرين فرصة للتمادي في تحقيرهم) بل على العكس من ذلك

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

فهم يعتبرون التمسك بعادات وتقاليد الآباء مصدر افتخار واعتزاز بالنسبة لهم مقارنة بمن يفتخر بانتمائه لهاته الفئة أو تلك. فضلاً عن اعتباره مؤشراً على معرفة الأصل وبالتالي إثبات أنهم من السكان الأصليين للبلدة.

"هما يقولو احرار وما عندهم شجرة"⁽²⁸⁾، وممكن أحرار منهم على خاطر نعرفو اصلنا. ومكانش كيما العادات والتقاليد اللي يتمسك بها معناه هو من الناس الأصليين ف البلاد".⁽²⁹⁾.

لكن وأياً كان منطق العبيد في هذا الشأن فإنه لا يلتقي مع منطق الأشراف والمرابطين. الذين يفهم موقفهم هذا في إطار إعادة بناء المجتمع بكل مكوناته وقيمه ومعايير.

"هاد العادة لقبيناها وما بعينا نحسوها ووكي نجو ضايرين ف الخط المرابطين والشرفة يقولو لنا عندكم شادو في هاد العادة وعندكم ترجعوا للروول وراكم مخيرين"⁽³⁰⁾.

فالأشراف والمرابطين برأسماهم الرمزي (السمعة، الجاه، الاحترام) وبرأسماهم المادي التقليدي (ملكية الأراضي، البساتين، الفقاقير) يعلمون مسبقاً أن العبيد هم في حاجة إلى مباركتهم ولذلك فهم يفعلون ذلك لأنه منتظر منهم ولأنه يصب في مصلحتهم باستمرار الوضع على ما هو عليه. أما العبيد الذين يقبلون هذه المباركة والشهادة ويعتزون بها مثلما رأينا مع الفاتحة والبركة، فإنهم سرعان ما يوظفونها لصالحهم. لأنهم أيضاً طالبي رأسمال رمزي ومادي ويسعون وفق طرق خاصة لتحقيقه إلى الدرجة التي ينظر فيها لكل شخص تحلى عن عادات وتقاليد أبيه مثلاً على أنه خارج عن المجتمع ومنبوذ. ومن الأمثلة الأخرى التي تضرب في هذا السياق هو صناعة بوك لا يغلبوك وهو مستعمل بكثرة. لكن إذا أخذنا في الحسبان أن العادات والتقاليد والحرف التي يرثها الأبناء عن آبائهم تختلف من فئة لأخرى.

إن كانت تبدو عادية ومقبولة اجتماعياً في إطار النظام الاجتماعي السائد والمبني على أساس الهرمية في كل شيء - إلا أن تمسك الابن بعادة أبيه الذي كان يبيت في الجامع يقرأ القرآن ليس كمن كان أبيه مهتماً فقط برقص العبيد أو البارود أو حتى الحضرة أو الطبل يوم الزيارة. وعليه فإن الدعوة إلى التمسك بمخلفات الآباء للأبناء أو تبرير ذلك يكون أقرب إلى الفهم في إطار إعادة بناء المجتمع لنفسه منه إلى شيء آخر. لأن ببساطة هذه العادات والتقاليد لازالت محل تصنيف على أساس الفئات، وهكذا نكون أمام وجود منطقتين قد يبدوان في الأول متكاملين من خلال الاعتراف المتبادل لكنهما متناقضين عند دراسة كل واحد منهما على حدى ومدى تأثيره السلبي على نجاح المنطق الآخر.

إذا ما علمنا على هذه الرواية الخاصة بتاريخ أنشطة العبيد واحتفالاتهم: "باتنا كي ناضو لهاد الشئي كان الخص (...). وسيادهم جماعة البلاد دارو لهم هاد الطريقة وحنا بغينا كيما راهي تقعد وخالص" (31)، فإننا نتوصل إلى التالي:

أن ظهورها يعكس الظروف الاقتصادية التي مرت بها المنطقة حتى النصف الأول من القرن العشرين. حيث كانت الخيرات المادية شحيحة جداً. فكان العبيد ينتقلون بين البيوت بحثاً عن لقمة العيش. والنتيجة هي نصح أسيادهم لهم أي الأشراف والمرابطين بتنظيم حركة طلب الرزق في إطار نشاط موسمي يتكرر كل عام. وتطورت هذه الحركة إلى أن أصبحت تشمل مجموعة من القصور أي ما يعرف بالخط أو العرش.

7-2. إعطاء الزيارة للعبيد بين اعتقادين

الظاهر أنه لم يكن هناك فرق بين زيارات العبيد وغيرهم فيما يخص استلام الزيارة من الزائرين أو المعتقدين. وكون التصدق بخروف للولي هو أكثر تكلفة من التصدق بدجاجة مثلاً، فإن هذا ينفي ارتباط الزيارة بوجود مقام للولي. لأنه لا في الماضي ولا في الحاضر يوجد مقام للولي ومع ذلك كانوا يحصلون على خرفان.

"أنا قلت لك ما عندناش مقام يجيبو لنا ديك ولا دجاجة. زمان كانوا يعطونا الخرفان. النوايا ما بقاتش" (32)، أم ربط تراجع الزيارات التي يقدمها الناس، إن شكلاً أو حجماً، بتغير الظروف المادية لمستلميها فهذا أمر جدير بالاهتمام في إطار هذا البحث.

إنه يعني وجود تباين واضح بين اعتقاد العبيد - مثلهم مثل سائر القائمين على الزيارات - القاضي بأحقيتهم في أخذ الزيارات، باعتبار الولي الذي يمثلونه لا باعتبار أوضاعهم المادية أو الاجتماعية، وبين اعتقاد هؤلاء المانحين للزيارات الذين توقفوا عن تأديتها بمجرد تحسن الظروف المادية لمن كانوا يأخذونها منهم من العبيد.

"زمان العبيد كانوا دراويش. ودروك هاد العبيد اللي دارو الدلتا وولى منهم المير وكاين اللي عام ربي عطاء ودار بدراعو الناس قلوبها تتغير" (33).

7-3. الطابع الفلكلوري لزيارات العبيد

إن تبرير عدم القدرة على ختم القرآن يوم الزيارة بعدم القدرة على التكفل بمتطلبات ذلك (وإن كان يصح في ظروف معينة وعند أشخاص معينين) والذي يتناقض مع الحرص على عدم استضافة الضيوف في المنازل. "باش نثبئ السلكة كيما البلدان الثانيين مانجموش نديروها"⁽³⁴⁾ وكذا القيام بالسلكة (الربعية) وإطعام الطعام للناس قبيل الزيارة مباشرة يعكسان هذه الرغبة الموجودة عند العبيد في التفرغ التام لما هو أهم في نظرهم وفريد من نوعه وهو قرقابو. هذا الأخير الذي يميز هذا الصنف من الزيارات، سواء كانت تقام لولي معين أم لا، والذي بدونه لا يبقى لها أي جوهر. أما السلكة والفاحة وحتى البارود - كونه تشترك فيه كل الأصناف الأخرى - فهي أشياء كثيراً ما تتكرر. رغم أن زيادة السلكة في وضع كهذا لا يكلف الكثير في نظرنا. نهار زيارة الوالي ماعندنا لاقل هو الله ولا الحمد لله رب العالمين ما عندنا لا فاتحة ولا قرابة ولا أقال ولا بارود. ما عندنا إلا قرقابو. ربي في السما وقرقابو في الأرض⁽³⁵⁾، كما أن ما يحدث في زيارة الزيتوني وبركة والدا مسعود لا يشذ عن هذا الوضع الذي يعتبر قاعدة متعارف عليها عند أبناء هذه الفئة⁽³⁶⁾.

4-7. التبرك بالمواشي كصفقة تبادل تجارية يعول عليها كلا الطرفين

تعد المواشي التي تستفيد منها الزوايا في سائر الأيام أحد مصادر الاعتقاد عند الناس والتي لازالت إلى اليوم. حيث تأخذها العائلات التي أصابتها مصيبة أو كارثة في مواشيتها. بغية التبرك بها من أجل استكثار ماشيتها أو ضمان حياتها (حالة المواليد الصغار التي سرعان ما تموت ولا ينتفع بها أصحابها). يبدو من الواضح أن هذه العملية وكأنها صفقة تبادل يلتزم كلا الطرفين بتنفيذها. حيث تتكفل العائلة بأحد الخرفان أو غيره عندها وقبل الزيارة بقليل يتم تقييمه من طرف أصحاب الزاوية فإذا وجدوه صالحاً للذبح فإنه يذبح وتأخذ العائلة نصفه أو يباع وتأخذ نصف قيمته.

ألا يحق لنا أن نتساءل هنا ونقول: في حالة أخذ الواحدة من الماشية بغية التبرك بها وانتهت المدة ولم يظهر أي أثر للبركة على مواشي العائلة المتبركة، ألا تكون هذه العائلة مع ذلك رابحة؟ لماذا؟ لأنها تحصل مقابل تكلفتها ونفقتها عليها بأخذ نصفها عند الذبح أو نصف قيمتها عند البيع.

ثم ألا يعد هذا التبرك مجرد حيلة فقط من أجل تحصيل بعض الرزق؟

غياب هذا الضامن أو هذا الاعتقاد اليقين في حلول البركة يعاين من خلال قبول المتبرك بأخذ النصف لحماً أو قيمة هذا من جهة وتنازل ممثلي الزاوية عن هذا النصف له من جهة أخرى. وحتى إذا ما فترضنا أنه من الممكن أن تبقى هذه المواشي في أحد البيوت ويعلم الناس جميعاً بهذا الأمر بغية التكفل بكل ما تحتاجه من عشب وعلف، أو تترك طليقة تدور في أزقة القصر وبساتينه كما جرت عليه العادة من قبل

فإننا نرى في عدم الاقتصار على هذه الحالات أو حالات مماثلة نوعاً من الاعتراف والتواطؤ بين ممثلي الزاوية وطالبي البركة. وكلا الطرفين يساهمان في بقاء الزاوية و الزيارة معاً.

8- المنافسة الداخلية على الاعتبار والمنزلة

8-1. المنافسة الداخلية على الرأسمال الرمزي

كما أن هذا التزاور يمكن دراسته في إطار أوسع. ونقصد بذلك أن المضيف مكثرت بتعريف أحبائه وزملائه بمكانته في مجتمعه وبالتالي فهم يساهمون في تعزيزها من خلال شهاداتهم ومواقفهم التي يدلون بها سواء أثناء الزيارات أو بعدها. أما بعض المؤشرات الظاهرة لهذه المكانة فتتمثل في مدى توافد الضيوف عليه وقدرته على التكفل بهم (كثرة اللحم ونوعيته، الملفوف، أنواع المشروبات والفواكه...) كما أن جزءاً آخر من هذه المكانة قد يظهر من خلال هيئة محل الاستقبال وما يحتويه من وسائل توفر الراحة التامة للضيوف.

كل هذه التفاصيل يجري الحديث عنها في حالة وجود تلك المكانة أصلاً. أما في الحالة الأخرى أي عند طلب هذه المكانة فإنه من الممكن توظيف بعض تلك الأساليب من أجل تحقيقها. ولذلك فحرص المضيف على الإنفاق بل شعوره بواجب الإنفاق يدخل في هذا المعنى الواسع للتزاور. وهكذا يسعى إلى تحقيق أهداف معينة كالجاه والقدر والمكانة. وليس مستبعداً أن يكون هو الآخر قد ساهم أو لا يزال في تعزيز مكانة شخص آخر في بلدة أخرى من خلال زيارته المتكررة له وأنه حظيه بالثناء والمدح. هذا من ناحية المضيف، أما من ناحية الضيف فإنه يذهب عند شخص معين بذاته بغية التأكد باللموس من ما يسمعه عن فلان أو أولاد فلان بأنهم أهل سخاء وكرم أو بغية وضع هذا الأخير في محل امتحان بخصوص استطاعته على توفير الإقامة نفسها التي حظي بها لما كان ضيفاً عنده⁽³⁷⁾.

8-2. الرأسمال المادي والرمزي

تشكل المكانة من جانبين: مادي ومعنوي. المادي وهو القاعدة المادية التي يتمتع بها الشخص والتي إذا ما وظفها أي أنفق منها وضحي بجزء منها (تشديد أماكن الاستقبال وتوفير مستلزمات الراحة) فإنها تساهم في حصوله على المكانة المعنوية. غير أن هذا لا يستدعي بالضرورة تسخير المادي من أجل اكتساب المعنوي. فقد يكونان متلازمان عند الشخص الواحد مثلما هو الحال عند الأشراف والمرابطين. أما الجانب المعنوي فنعني به المدح والثناء والقدر الذي يكتسبه الفرد وما يتصل به من صفات أخرى كالكرم والسخاء وغيرها.

9- لقمة توات بين الاستدانة والإدانة

تحولت لقمة توات التي تمنح في الزيارة للضيوف من إكرام الضيف والتصدق في سبيل الله إلى مجرد استدانة يقدمها المضيف إلى ضيفه الذي يتحول بدوره إلى مضيف يتعين عليه إرجاع دينه عندما تحل الزيارة عندهم. وهكذا يتحول المضيف إلى مجرد دائن والضيف إلى مستدين. وقد يكون الشخص في الوقت نفسه دائناً ومستديناً. أما دائناً فلكونه أذان لقمته لضيوف ما وهو ينتظر اليوم الذي يسترجع فيه دينه. وأما مستديناً فلكونه تناول طعام غيره وهو عليه دين.

"الضيفة من ادرار مرحبا وسهلا بهم وخلص. اللاسلف اليوم تاكلها عندو وغدوا ياكلها عندك. لقمة توات اللاسلف" (38).

إن هذا الانتقال لإنفاق الطعام من المجال الديني (النفقة ترحماً على الأقارب أو احتساباً للأجر في دار البقاء) والقدسي (بمناسبة الولي) إلى المجال الدنيوي يعكس تأثير الظروف المعيشية (كثرة التكاليف وغلاء الأسعار) على تصورات الناس تجاه الزيارة. فهذا الانتقال يخفي وراءه كذلك اضطراب الناس تحت قهر الواقع إلى إعادة حساباتهم وإخضاع جميع أمورهم إلى مبدأ الربح والخسارة⁽³⁹⁾. خاصة وأن اتجاه الناس أصبح واضحاً في الآونة الأخيرة نحو البناء والتشييد احتياطاً من الكوارث الطبيعية أو حتى الانشغال بتحقيق سبل الرفاهية بالنسبة للذين تجاوزوا هذه المرحلة.

ألا يمكن اعتبار هذا الإنفاق الذي قد يتجاوز حدود الطاقة ما هو إلا أداء للواجب الذي يشعر به الشخص المضيف كما رأينا في السابق. فهو يتكلف في النفقة لأن الآخرون أيضاً يتكفون.

إن المنفق يتكلف فيها (المعتضون يرون أنه أولى أن ينفقه على أهله أو يتصدق به على والديه أو أقاربه الأموات) لأنه يدرك أن الحد الأدنى الذي ينتظره منه الضيوف يكون عادة أكبر من مستوى نفقاته اليومية. وهنا نلاحظ كيف أن الضيف يشترط لكن بطريقة غير مباشرة ولا يحس بها إلا المضيف الذي يشعر بأنه مجبر على تلبية مثل تلك الشروط والخضوع لإرادة ومنطق الضيف⁽⁴⁰⁾. وفي هذا الإطار بالذات يمكن فهم وتفسير ردود أفعال الناس المطالبين بإحداث تغييرات في الزيارة أو انتقادها بالكامل. أما بالنسبة للمثل الذي يقول بأن على المضيف أن لا يفرط وعلى الضيف أن لا يشترط فلا أثر له في ممارسات الناس. نعم قد يكون مطبقاً حرفياً في سائر الأيام نظراً لأن الضيف لا يكون عنده الخيار والمضيف لا يكون على علم مسبق بقدومه إليه: "داك الشيء اللي يجيبوه لي ناكلو. مول الضيف ما يشرط ومول الضارة ما يفرط" (41).

وأما بالنسبة للشخص الذي ينفق كثيراً على ضيوفه ولا ينتظر رد ذلك إليه عندما يكون ضيفاً عندهم فإن مثل هذه الحالات لا تعكس الواقع وإنما تبقى حالات خاصة. كما أنه قد يتم إرجاعها إلى أسباب أخرى كأن تكون صفات وخصال شخصية موجودة في الشخص.

"هادا ضيف يجيك من بعيد لازم تشري اللحم الزين والضيف باش ما كان توجد فوق طاقتك إلا صبت" (42).

ولئن كان الذهاب إلى الزيارة بغية ملاً البطن من ما لذا وطاب من المأكولات والمشروبات التي لا يجدها الزائر في بيته يعكس في السابق كما يرى البعض ظروفاً اجتماعية متمثلة في العوز والحاجة⁽⁴³⁾، فإن ما نراه اليوم هو شيء آخر. خصوصاً و أن هذا الزائر الذي يكون ضيفاً اليوم عند أصحابه أو أقاربه أو عند أناس نزل عندهم لأول مرة سيكون غداً مضيفاً وبالتالي يكون مدعواً، مهما كانت ظروفه الاجتماعية، إلى التكلف نوعاً ما في النفقة مقارنة بسائر الأيام من أجل أن يوفر الحد الأدنى من المأكولات والمشروبات لأولئك الذين كان ضيفاً عندهم، لأقاربهم، لأصحابهم أو زملاءهم، لأناس يعرفونهم، لأبناء بلدتهم (والذين يجربونهم بمستوى ضيافته لهم) أو لأي شخص آخر. ولأنه لا يعرف من سينزل عنه فإنه يكون مطالب عرفياً واجتماعياً بتوفير الحدود الدنيا في الضيافة بكل تفاصيلها.

بناءً على ما سبق ذكره يمكن القول بأن اللقمة التي قد تبرر أحياناً بالصدقة أو إكرام الضيف فإنها لا تخرج في أغلب الأحيان وخاصة في الوقت الحالي عن كونها انعكاساً لسلوكيات جديدة في الزيارة فرضها تغير بعض القناعات والمسلمات بسبب الواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي عزز مبدأي النفعية والمادية في الحياة الاجتماعية.

إن التأكيد على أن "التزاور" في الزيارة أصبح محكوماً بمبدأ الحق والواجب (حق صاحب البلدة أن يزار وواجب الوافد أن يزوره والعكس بالعكس)، يقلل من أهمية تبرير الذهاب للزيارة بهدف التزاور. وفي الوقت نفسه يظهر وجود هدف آخر وهو التخلص من اللوم والمعاتبة. أو بعبارة أخرى إرجاع الدين لصاحبه. أصبحت الزيارة اليوم تبادل الزيارات "وتجيني نمشي لك ما تجيني مامشي لك".

"تبادل تجيني في الزيارة نمشي عندك". (مبحوث من البركة)

"يجوك ونهار زيارتهم نمشي". (تيطاف)

وبهذا يكون التزاور مثله مثل لقمة العيش خاضع لقاعدتي الحق والواجب وقاعدة المدينة أو السلف. فالمضيف يتفرغ كلية للزيارة ويفتح باب محله لاستقبال الضيوف لأنهم هم أيضاً يكونون يوم

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

زيارتهم متفرغين لها ويكون همهم الوحيد هو الضيف: "عندي زوج زيارات الجيلالي وسيد الحاج علي الغاشي يجيها بزاف. الجماعة كاين اللي يجو ويستقسو عليك، لابد تكون تما باش يلتاوك. كاين اللي يجيك 10 كيلو 12 لكيلو وكى مايلفاكش يتغن. كاين اللي ما يعرف حتى واحد في ديك البلاد.⁽⁴⁴⁾ وكذلك الضيف يذهب للزيارة لأن هناك شخصاً أو أشخاصاً ينتظرونه هناك. وهو مستشعراً إلزامية الذهاب عندهم. كما أنه لا يخفي حتى قبل الزيارة أو قبل مغادرته لبلدته نيته في الذهاب عند فلان أو فلان. وربما يصطحب معه آخرون⁽⁴⁵⁾.

9-1. الزيارة مناسبة اللهو

من الجوانب التي يغفل عنها أو يتغاض عنها المقيمين للزيارات وكذا المدافعين أو المستفيدين من استمرارها هي الجوانب الأخلاقية. حيث تعد الزيارة فرصة مواتية خاصة لدى الشباب والمراهقين لتلبية بعض رغباتهم وعواطفهم. ويعد هذا السبب كافٍ لمجيء العشرات بل المئات من هؤلاء لمكان الزيارة ومهما بعدت المسافة أو ارتفعت التكلفة بل هناك من يقطع عشرات الكيلومترات على دراجة نارية أو عادية من أجل الحضور للزيارة.

في الواقع تشهد الزيارات حضوراً مكثفاً للجنس الأنثوي وتعد هذه الظاهرة في تزايد مستمر. مصطحبة معها أشياء دخيلة على هذا المجتمع ليست لا من عاداته ولا تقاليده كالتبرج وإظهار المفاتن... وهذا ما يجعل الذكور أكثر حرصاً على عدم تضييع هذه الفرص، في ظل غياب أماكن أخرى للاختلاط، التي لا تتكرر إلا في مثل هذه المناسبات. أما عن أشكال هذا الانحراف فهي متعددة. منها أن الشباب يقطعون طريق البنات ويعاكسونهن عند تنقلهن بين قصورهن وبلداتهن وبين مكان الزيارة مشياً على الأقدام وفي جنح الظلام⁽⁴⁶⁾. ومنها كذلك الجري ورائهن ومعاكستهن في الأزقة الضيقة والمظلمة أحياناً أو تلك التي تقل فيها الحركة. أو ترصدهن عقب الاحتفالات الخاصة بهن التي تقام أحياناً في دور الزوايا.

من الأساليب الأخرى لهذه الظاهرة أن يزاحم الشاب الفتاة أو الفتيات عند تجولهن في أسواق السلع أو يتخذ من التجارة ذريعة بحيث يتحول إلى تاجر خاصة في الأمور التي تجلب النساء ومن ثم يجد الفرصة أمامه لإغرائهن أو اللعب عواطفهن. إضافة إلى كل هذا لا يمكن إنكار الدور البارز للهاتف النقال في تحويل الزيارة إلى مناسبة لضرب المواعيد بين الجنسين. أو للتعرف على الجنس الأنثوي أو ربط علاقة به من خلال استعمال كل الطرق للحصول على رقمه. ورغم خصوصية هذه الظاهرة (رفض المجتمع لها) التي تنمو على هامش الزيارة إلا أن هناك من الشباب من يجب أن يتطرق إلى هذا الجانب: "نبعي *circulation* ونبعي نصفني عينيا . متبع الطريق وخطرة خطرة نهرب على الطريق. النفس غالبية

لاعلاه الفساد مانفسدش. اللاتتكلم ومانمدش يدي. كي نشوف حوايج مليحة ولا موش مليحة نتكلم لداك اللي معاي. مرة صرات لي قصة هناياكي نجى تنفكرها. كان معاي واحد صاحبي وماكنتش عارف انا باللي داير هاكا. كانت واحد المرآة مع بنتها كبلتو بالتراب انا ماعرفتش واش صرى حتى لدروك يا إما مس لها بنتها ولا تكلم ليها".

كما أن هناك مجموعة من الناس لا يهتمها في الزيارات إلا إشباع الشهوات والغرائز. كالأكل والشرب. إلى درجة أنهم يحصرون الزيارة في مدى تلبية هذه الأغراض. "باش نتعشى هنا نعيم كرشى ونرجع وكي نتعشى زين هاديك هي الزيارة عندي، باش نقولها ليك. كي ما نتعشى زين هاديك موشي زيارة".

9-2. الزيارة كفضاء للترويح وفضاء أوقات الفراغ

يذهب الناس للزيارة أيضاً من أجل الترويح والترفيه عن أنفسهم من خلال مشاهدة الحضرة، الطبل، البارود، العبيد. ومنهم من يمشي من أجل التعرف على المناطق التي يحل بها وعلى خصائص سكانها وعاداتهم وتقاليدهم. وبهذا يكون للزيارة وظيفة سياحية إضافة إلى وظيفة الترفيه. لكن بالنظر إلى عدد المبحوثين الذين أشاروا إلى هذا الجانب السياحي وهم اثنان فإن هذا يعكس الدور الذي تؤديه الزيارة في مجال السياحة خاصة بالنسبة للسكان المحليين. بحكم تشابه البيئات التي يعيشون فيها وكذا العادات والتقاليد في اللباس وفي الأكل وغيرهما... وحتى أولئك الذين يذهبون بغرض السياحة فهم يذهبون أولاً من أجل زيارات المواقع والآثار التاريخية والسياحية وثانياً أنهم لا يربطون زيارتهم بالزيارة وإنما يذهبون في رحلات خاصة أو في سائر الأيام.

أما بالنسبة للزوار من خارج الولاية وحتى الأجانب فإنهم يستفيدون بشكل كبير من الجانب السياحي للزيارة بمشاهدتهم لمختلف الطقوس وخاصة أنواع الرقص المختلفة. فضلاً عن عادات وتقاليدهم سكان المنطقة. أما بالنسبة للجانب الترفيهي للزيارة (خاصة إقبال الناس على البارود) فإنه يعكس كما يظهر من قول أحد المبحوثين غياب دور السينما والمسرح التي من خلال نشاطاتها المقدمة للسكان تنسيهم همومهم ومشاكلهم اليومية وتروح عن أنفسهم.

"الهوال حنا مادا بينا يكون الهول. داك شوي الغش والحسد الناس تفاجي على قلبها. هاداك اللا تقليد نناع البلاد" (47).

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

"ك النفوس اللي تبقى مخزونة في الديار والناس الكبار دوك الناس اللي ما عندهم لا سينما لا شي قال خلقت الحضرة يخرج قال خلق العبيد يخرج".

يحظى البارود من بين أشكال الرقص المعروضة أثناء الزيارة بأهمية بالغة. ذلك لأنه كفرصة للتسابق والتنافس بين القصور لا يزال يحتفظ ببعض الميزات التي التصقت به منذ بداياته الأولى. كالتنافس في الشكل: الأداء الجيد والانضباط أثناء الرقص حتى لحظة التفريغ التي تكون حاسمة ونقطة ارتكاز من أجل إصدار الحكم النهائي: "ها لازم كاين كي تجيك فزعة منها لازم تفرطس وتخرج ليهم"⁽⁴⁸⁾، وكذا المضمون: ما تتضمنه الكلمات من معاني تمس المنافس مباشرة وتستفزه من أجل فعل المثل. بحيث يعد هذا التنافس بحد ذاته شيئاً ممتعاً وجذاباً بالنسبة للحضور.

"كي تكون زوج فرق موش كيما اللاوحدة. هادوراهم يقولو هادوك يدو عليهم. تسمع لهاذا واش يقول وتسمع لدوك واش يقولو والقرص قال هادو خسرو، هادا ماخرج قاع، هادو غلبو وهادوك خسرو...ايه مادابينا زعما ماكانش اللي ما يبيغيش بلادو لازم يغلبو"⁽⁴⁹⁾.

لعل هذه الخاصية التنافسية للبارود هي التي جعلت منه أكثر الفنون استقطاباً للجماهير. لأن الراقص ينشغل بحسن أدائه داخل الحلقة حتى تتفوق فرقة على سائر الفرق علماً أن كل واحدة تكون ممثلة لجهة أو قصر معين وكذلك المشاهد ينشغل بتشجيع فرقة على حساب أخرى أو بعقد المقارنة في الشكل والمضمون بين جميع الفرق بغية تحديد الفرقة المتألقة في الأخير. بل نلاحظ التنافس حتى بين عناصر الفرقة الواحدة وهذا ما يصيب هذا النوع من الرقص بصبغة خاصة.

10. التمسك بالزيارة بحثاً عن الرأسمال الرمزي (النسب)

أجرينا إحدى المقابلات مع شخص مكلف بالقيام بإحدى الزيارات. وبمجرد أنه وصله الخبر بأننا نسأل عنه قطع عمله والتحق بالمكان الذي كنا ننتظره فيه. ولقد حظينا من طرفه باستقبال حار. لكن الملفت للانتباه أنه بمجرد أن فهم الموضوع الذي أتينا من أجله. بدأ يفكر في أمور أخرى وبدت الحيرة والقلق على ملامح وجهه. ورغم أن المقابلة لم تنتهي إلا أنه قرر الاتصال بشاهد البلاد من أجل أن يحضر معنا أو نتقل بغية إعطائه معلومات أكثر عن الزيارة وعن الولي المعنيين.

في الحقيقة أن هذا الحرص لم يكن من أجل إفادتنا نحن فقط، وإنما هو الآخر كانت له أهداف أراد الوصول إليها. وهو الشيء الذي لم يستطيع كتمانها وأباح به في آخر المطاف. حيث شكل التقائنا به فرصة مواتية من أجل زيادة التوسع في الموضوع والبحث عن الحقيقة.

إن الشخص الذي نتكلم عنه هو من فئة السود والولي الذي يشرف على زيارته هو من البيض، وحسب ما رواه لنا فإنه منذ صغره وجد أسلافه يشرفون على شؤون هذا الولي وزيارته وأن منزلهم كان بمثابة دار الزاوية باسم هذا الولي. أما بالنسبة للسبب الذي جعله يبحث أكثر في حقيقة الزيارة والولي فهو أنه قد سبق له وسمع كلاماً من شخص آخر عن وجود علاقة محتملة بين قبيلته والولي. وبعد التقائنا بشاهد البلدة (الإمام الخطيب وأحد أعيانها) الذي لم تكن له معلومات كافية عن الولي، أي أن تساؤلات القائم على الزاوية بقيت دون إجابة ولم يستطيع الشاهد لا نفي ولا إثبات بعض المعلومات المقدمة من طرف مبحثنا، انتهى بنا الأمر إلى افتتاح الموضوع من جديد في جلسة أخرى وفي مكان أخرى وعندها أفصح لنا بوضوح عن الدوافع والأهداف التي هي من وراء بحثه في الموضوع. وبعدها أكد لنا أن التنقل إلى البلدة التي انحدر منها الولي أصبحت ضرورة بالنسبة له من أجل استكمال البحث عن الحقيقة. خاصة وأنه كما قلنا سابقاً هو منشغل أكثر بمدى وجود علاقة دموية بين عائلته وعائلة الولي أم لا.

كما هو واضح من هذه القصة إن صح التعبير فإن استمرار القيام بزيارة معينة قد يفسر بوجود مصالح خاصة عند القائم أو القائمين عليها كالبحث عن النسب. هذا الأخير الذي إذا تحقق يستطيع صاحبه أن يعول عليه في تعزيز رأسماله الرمزي وتحصيل الرأسمال المادي.

10. الفلكلور جزءاً لا يتجزأ من الزيارة

يؤكد العديد من أصحاب الزيارات الذين قابلناهم على أولوية السلوك التي يختم فيها القرآن وما يتعلق بها من توفير الإقامة للقراء والضيوف وأمن الأرواح والممتلكات على سائر الأمور. لكن قد تكون هناك قرائن أو شواهد تدل على أن للفلكلور نصيبه في الزيارة. وأن مكانته لا يمكن الاستعاضة عنها بأشياء أخرى. ومادام أن المشرفين عادة يكونون من البيض، وأن الحديث عن الفلكلور (البارود والعبيد) يتضمن الحديث بالضرورة عن فئة أخرى هي فئة السود، فإن فهم وتفسير التصريحات والمواقف الصادرة عن القائمين على الزيارات لا يمكن أن يتم أو أن تكون له قيمة خارج هذا الإطار.

"لا داعي، بالنسبة للبارود تولي ناقصة شوييا في الضياف. يشد الضياف شوييا".

العبيد ما يأتروش، شوييا.

أن الزيارة تنحصر فقط في ختم القرآن جمعياً وما يتخلله من تقديم للطعام والشراب لأولئك القراء. نحافظ على الجامع والسلوكية. كي تبدأ السلوكية وياكلو ويشربو وياكلو ويشربو وتختم السلوكية. كي تختم السلوكية طلعت الكتبة نتاع الزيارة".

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

لكن بعد استقراؤنا للميدان تبين عكس هذا الكلام تماماً. أي أن الزيارة لا تنتهي بحتم القرآن فقط. حيث أكد لنا أحد كبار السن في بلدة الزيارة على أن العادة جرت أنه بعد انتهاء البارود في المكان المخصص له تستمر الفرق في الرقص. متجهة إلى دار الزاوية أين يرقصون هناك لبعض الوقت ثم يحنون. كما أنه ضرب لنا أمثلة على مدى حرص أهل الزاوية على الاستمرار في هذه العادة أو ما يسمونه فألاً. حيث أنهم لا يرضون بالتفريط في القيام به. وعليه فإن هذا الفأل سواء تم داخل دار الزاوية أو بالقرب منها فإن هذا الأمر لا يمكن أن تقرره رغبة الراقصين في ذلك ولكن يتم بإرادة وترحيب من أهل الزاوية وهذا ما ينفي الكلام الذي جاء على لسان أحد القائمين عليها. أما بالنسبة لهذا الفأل فإنه يحمل أكثر من دلالة.

حسب ما استقيناه من الميدان فإن هذا الفأل كان منشأه هو حاجة نساء دار الزاوية إلى اللهو والزهو كغيرهن من النساء. ونظراً لأنهن لا يخرجن من بيوتهن تم إيجاد هذا الحل بتنقل فرق البارود إليهن لا العكس. أولاً إن الحرص على استمراره حتى وإن انتفت أسباب ظهوره. كانهدام الرغبة لأولئك النساء اتجاه البارود أو خروجهن إليه كسائر الناس، يدل على أهمية استمرار هذه الممارسة.

تبيان بأنهم أصحاب البركة والجاه هم من يتحكمون في زمام الأمور وأن الآخرين ما هم إلا تابعين لهم وخاضعين لأوامرهم. وهذا من شأنه أن يعزز مكانتهم ويحفظها من الزوال. خاصة وأن أصحاب الزاوية هم من يشرفون إشرافاً مباشراً على الزيارة. فعدد الوجبات وأوقات تقديمها للمالكين في المسجد وحتى مضمونها يحدد من طرفهم. فمثلاً العرف السائد في المنطقة هو تقديم فطور الصباح على شكل وجبة محلية لكنهم يقدمون فقط البسكويت والشاي. أما بالنسبة للوجبة التي تقدم مباشرة بعد ختم القرآن فإنها منعدمة تماماً.

مادام أن الإقبال الكبير على الزيارات محبذ من طرف مسيرها. "شكون اللي يصيب ينفق في سبيل الله ويلقى اللي ياكل وما يغيها، مادايينا". الشيء الذي لا يكون إلا بوجود البارود حسب تعبيره فإنه يقر ضمناً بأهمية البارود في ضمان عدم مغادرة الضيوف للزيارة مبكراً. ولا يعني بقاء الضيوف فقط هو الداعي لزيادة الإنفاق والطهي وإنما أيضاً زيادة فرص تدفق الزيارات على الزوايا. مثلما أكدنا في أكثر من موضع.

رغم أن إدراج العبيد في زيارة الشيخ بن أعرم لم يكن من قبل، وإنما تم منذ سنوات قليلة فقط. إلا أن استمراره وعدم اعتراض أهل الزاوية عليه يدل على مدى قبولهم بمثل هذه الأمور.

"إلا جاو مارانش باغيين نقولو لهم ما ديروش ولا بطلو الله يسهل عليهم"

نعم هذه العادة هي مستحدثة ولم تكن جزءاً من الحدث. لكن اليوم بحكم المدة التي مرت عليها قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الزيارة. والتأثير السلبي لتوقيفها هو ظاهر لا محالة لأن الناس اعتادوا عليها سواء أصحاب البلدة أو الزوار. فتجدهم يسألون عنها ويتربونها بفارغ الصبر (يحرص الناس على الحضور للرقص الذي يبدأ من الـ 11 صباحاً ويستمر إلى ما بعد الزوال حتى في الصيف). وبالتالي فإن التأكيد على عدم الاكتراث بتوقيف هذه العادة نقرئه من جهتنا الخاصة على أنه يلمح إلى الشعور بتوازن السلطات من طرف أصحاب الزيارة. لأنه ليست لهم قدرة لحمل العبيد على تغيير موقفهم إذا ما قرروا التوقف. أو لعله التعبير عن وجود تعارض في مصالح كل طرف من الممارسة الواحدة وهي رقصة العبيد. أي أن العبيد هو ضروري في الزيارة وحتى إذا لم يكن ذلك فيكفي أنه يؤكد تبعية هذه الفئة للبيض. لكن أن يتحول هذا الرقص نفسه إلى وسيلة يعبر فيها العبيد عن وجودهم ويحققون بها وحدتهم بل ربما حتى يحاولون من خلاله رفض النظام القائم والثوران عليه، فإن هذا الأمر يدخل في إستراتيجية ومنطق آخرين متناقضين مع إستراتيجية ومنطق البيض.

نذكر هنا أنه في هذه الزيارة في العام الحالي قام أحد المكلفين بالزيارة بشراء ما يعرف بالكابسون من أجل تشجيع أهل البلدة على رقص البارود في هذه المناسبة. وهذا ما يؤكد وجود مصلحة لأهل الزوايا في مظاهر الفلكلور التي تعطي الزيارة صبغة خاصة. إذ يعد العبيد مثله مثل البارود أحد هذه المظاهر.

11. مؤشرات نجاح الزيارة

يربط الكثير من القائمين على الزيارات نجاحها بمدى قدرتهم على التكفل بالضيوف من جميع النواحي وكذا غياب الخصومات والاعتداءات إن على الأنفس أو الممتلكات. بالنسبة للمؤشر الأول الذي هو التكفل التام بالحضور، يعكس مدى تخوف القائمين على الزيارة من التعرض لانتقادات وتقييمات الجماهير وخاصة بعد انتهاء الزيارة. علماً أن التقييم الذي تخضع له كل زيارة من جميع الجوانب وخاصة الإطعام والإقامة لا يشمل فقط الذين حضروا وإنما حتى الغائبين. وكذلك يستمر فترة طويلة قد تصل إلى الموعد القادم للزيارة أو تتجاوزه. أما المؤشر الثاني فإنه يعكس أحد خصوصيات الحياة اليومية للسكان. كونهم غير متعودين ولا يرون ضرورة لتدخل رجال الأمن بمختلف أسلاكه في حياتهم التي تعد الزيارة جزءاً منها. ولذلك فهم لا يزالون يلجئون إلى المؤسسات التقليدية في فض نزاعاتهم وخصوماتهم.

أما موقف صاحب الزيارة، فيمكن تفسيره في عدة نقاط:

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهوياتية

أولاً هو لا يرغب في إعطاء طابع رسمي للحدث سواء عن طريق حضور السلطات الأمنية أو حتى السلطات المدنية.

ثانياً حضور السلطات الأمنية لمتابعة ما يدور في الزيارة من أولها إلى آخرها هو شيء لا يخدمه. لأنه يجعل الضيوف يتخذون موقفاً سلبياً من مكان إقامة الزيارة أو من الزيارة نفسها أو على الأقل يجعلهم يفكرون في أمنهم وسلامتهم أكثر مما يفكرون في الولي وواجبهم اتجاهه واتجاه زاويته. وحتى إذا لم يتذكروا هذا المقصد الأساسي والجوهري من الزيارة فإن المهم بالنسبة للقائم عليها هو توفير الظروف الملائمة من أجل أن يزداد عدد زوار الضريح أو دار الزاوية نفسها وبالتالي تكثر مداخل الزيارة بصفة عامة. ثالثاً الخوف أيضاً من تقنين الزيارات عن طريق مطالبة أصحابها الحصول على تراخيص إدارية مسبقاً.

بناءً على ما سبق ذكره، يمكن القول من الطبيعي أن يهتم صاحب الزيارة بالتكفل بالضيوف وغيرهم وأن يسهر على سلامتهم لأنه في المقابل يحظى بتبجيل الناس له ومدحه إياه. ومن ثمة يبدأ الترويج له ولزيارته. وهكذا يضمن تزايد الوافدين عاماً بعد آخر. وإذا ما اعتبرنا أن السمعة والتبجيل والمدح والثناء عناصر تدخل في إطار البنية الفوقية وفق التعبير الماركسي أو الرأسمال الرمزي وفق تعبير بورديو فإن العلاقة بينها وبين البنية التحتية أو الرأسمال المادي هي علاقة جدلية. بحيث أن إنفاق الطعام والتضحية بالوقت والمال يكون بغية كسب رضا الناس وثنائهم. وفي حالة حدوث هذا الأخير فإن الرهان يكون عليه بغية تقوية الوضع المادي من خلال الزيارات التي تقدم عيناً أو نقداً من طرف الزوار الذين يتزايدون كل عام⁽⁵⁰⁾.

"هداك نهار تعود عندنا الكفاية باش الضيف والضيفة تمشي قاع ما خص شي لحد هداك عندنا تتشاف باللي الزيارة صادقة. وكامل داك الشئ مايجينا بوليس ولا جاضومي وما يخلق زقا ولا توكويك".

إن الاهتمام الواسع من قبل أهل الزيارة بكل ما يتعلق بها بداية بالمسجد وساحة الفلكلور وحتى عند المضيفين من سكان البلدة يعكس مدى أهمية كل هذه العناصر في نجاح الموسم وأنها كلها مجتمعة تشكل ما يعرف بالزيارة. وعليه فإن أي تقصير أو نقص في أحد هذه الجوانب يؤثر بالضرورة على اهتمام الناس بالزيارة وتوافدهم إليها في المواسم القادمة. وهذا ما لا يخدم لا المصالح المادية ولا المعنوية لأصحاب الزيارة.

"كسي نسمعو القرابة جات مليحة والمهرجان اللي يخلق إلا خلق وما خلقت فيه فتنة والضياف ماكانش اللي يشكي وما خصهم حتى شي... وحتى يكونو في مقسمين في الديار يكونو في حالة نشاط وما يخصهم حتى شي".

الخلاصة

هناك أموال وخيرات معتبرة تحقق أو يمكن تحقيقها لصالح مقيمي الزيارات من خلال الزيارات والهبات التي تتدفق على ضريح الولي أو على دار الزاوية أثناء الزيارة بصفة خاصة وفي سائر الأيام بصفة عامة بحيث حتى وإن قلت فإنها لاتنقطع.

فوجود هذه المصالح المادية على الأقل عند البعض يعد سبباً من أسباب استمرار الزيارات بالنسبة للجميع. وهكذا نستطيع استخلاص ما يلي:

- مجرد مساهمة تلك الخيرات في إقامة الزيارة واقتصار المشرفين على المساهمة الرمزية أو عدم الحاجة حتى إلى هذه المساهمة الشخصية يعني أن هناك استفادة تتمثل في اكتساب أو تعزيز الرأسمال الرمزي.
- كثرة المشتكين من قلة مداخيل الزيارة مع استمرارهم في إقامتها يعني أنهم يتطلعون إلى رجوع تلك الأيام التي كانت الزيارة في عزها وكانوا يكسبون من وراءها الكثير أو أنهم يدركون قيمة مداخيل بعض الزيارات الحالية ولذلك فهم لا يريدون التفریط في تلك الزيارات التي يسرون أمرها. لأن الأرباح والفوائد التي تحققها الزيارة هي ماثلة أمام أعينهم عند أولئك القلائل الذين لم تتأثر زيارتهم بظروف أو أوضاع معينة (كغلاء المعيشة مثلاً) وإنما على العكس فهي في ازدهار.

الهوامش

1- سألنا أحد الشيوخ، الذي يشتغل كشاهد وإمام خطيب ويحظى بشهرة محلية على الأقل على مستوى دائرته، عن أصل الحضرة فأجابنا بكل بساطة بأنها هي المقصودة بالدف في أحد الأحاديث النبوية الذي في معناه أعلنوا النكاح واضربوا الدف.

إن هذه الإجابة التي تقدم تأصيلاً شرعياً للحضرة توضح الصبغة الشرعية التي أعطيت لبعض المفاهيم الصوفية حتى عدت جزءاً من الدين يدخل في إطار الندب أو الاستحباب ولما السنة.

² - يقال بالدارجة قريب في الندهة بعيد في الخطوة.

³ - أخبرنا أحد القائمين المباشرين على زيارته عن أن إشرافهم عليها هو أمر ورثوه عند جدهم وعن عدم وجود دليل يثبت صلة قرابة بينهم وبين الولي، لفت انتباهنا إلى أمر مهم بالنسبة إليه بالنظر على وضعه

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهويةية

من الزيارة كما هو مهم بالنسبة إلينا كباحثين وهو أن اسم بن حمادي هو مجرد كنية لهذا الولي أي أن أبيه اسمه حمادي أما اسمه الحقيقي فتساءل عنه كما نتساءل عنه بدورنا فما هو؟ ولماذا هو غير معروف؟ ومن هو السبب في إخفائه؟ وهل هناك مصلحة من وراء ذلك؟

⁴ - رغم أن هذه الزيارة تقام لأحد السود غير أن ما لاحظناه من عدم وجود فروق بينها وبين زيارات البيض لا في الطقوس ولا حتى في نوعية الضيوف أثار انتباهنا. فسمعة هذه الزيارة وما يتناقله الناس عنها لا يختلف عن زيارات البيض. وربما مرد هذه الحالة الفريدة من نوعها إلى كون هذه الزيارة هي الوحيدة الكبيرة والمشهورة بالقصر من جهة وإلى أن العائلة التي تشرف عليها ليست من فئة الولي أي من العبيد رغم أنهم من السود. وربما يضاف إلى هذه الأسباب هو إشراف أحد البيض على إعطاء البركة للزوار وأخذ زيارتهم في مقابل ذلك.

⁵ - يبين هذا الأمر عدم اكتراث البيض بأولياء السود أصلاً.

⁶ - في السابق كان يأتي العبيد حتى من تميمون لحضور زيارته.

⁷ - البركة إقسطن دلدول أوقروت.

⁸ - نشير هنا إلى أحد أولياء أوقروت الذي كان في بداية حياته عبداً عند ولي آخر ولما اكتشف أمره أصبح يلقب بالسي فلان بدلاً من الدا فلان.

⁹ - رغم تساؤلاتنا الكثيرة عن سبب حضور عبيد قصر أولاد السعيد إلى زيارة بن حمادي حيث تصل المسافة بين القصرين إلى أكثر من 150 كلم إلا أننا لم نجد جواباً مقنعاً. لكن بعد المقارنة بين المعطيات نستطيع القول بأن سبب مجيئهم هو لأن من تقام له الزيارة هو واحد من فئتهم ليس أكثر. كما نشير هنا إلى بداية اهتمام فئة العبيد بعين صالح بالمشاركة في زيارة بانديلو حيث أنهم حضروا مرتين قبل إجرائنا للمقابلة مع صاحب الزاوية.

¹⁰ - بمناسبة زيارة بركة بقصر أغيل يشارك حتى السكان الذين هم ليسوا من العبيد في الزيارة. حيث يساهمون بمبالغ مالية يشتري بها اللحم الذي يقسم فيما بعد على العائلات التي تود تحضير طبق طعام حيث تجمع جميع الأطباق في مكان واحد وتقدم لسكان القصر والضيوف. لكن تبقى هذه الحالة تخص هذا القصر فقط لأن كل سكانه هم من البيض باستثناء عائلتين فقط من السود لا تنتمي إلى العبيد.

¹¹ - بركة خلف ولداً من بعده لكن لا يعرف عنه الكثير وما يعرف عنه هو أنه هو أيضاً لم يخلف ذرية.

وبناءً على هذا نتساءل كيف يمكن فهم ما يمكن تسميته ظاهرة عدم وجود أحفاد لأولياء السود؟

¹² - شيخ زاوية بابلال

13- شيخ زاوية بابلال

14- شيخ زاوية بانديلو

15- في الحقيقة أن هذه الزيارة لا تقام لولي معين حيث أننا في البداية عندما أخبرنا عنها في قصور أخرى باسم أما عيشا بابلال اعتقدنا أن هذا اسم ولية من السود لكن عندما وصلنا إلى عين المكان وتقابلنا مع المكلف المباشر على الزيارة لم يستعمل تلك التسمية وإنما استعمل بابلال أي سيدنا بلال عليه السلام. وعن التسمية الأولى أعطانا تفسيراً بدا لنا معقولاً ومنطقياً وهو أن العبيد الذين كان يأتي بهم من السودان ومن غيره كانوا عندما يسألون عن هويتهم ونسبهم فكان يجيب الواحد منهم اما عيشا با بلال أي أمي عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بلال صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم. فهكذا نشأت هذه العبارة وبقيت مستعملة إلى اليوم عند البعض. وبهذه الكيفية استطاع العبيد أن يثبتوا لهم مرجعية تاريخية على غرار مرجعيات الجماعات الأخرى.

16- شيخ زاوية بابلال

17- *Hassan Rachik, Sacré et sacrifice dans le haut atlas marocain, Afrique orient, Casablanca, Maroc, 1990, p97.*

18- باقي زيارات العبيد يحضرها العبيد من القصور المجاورة أو من كل قصور الخط أو العرش الواحد. غير أنه اكتشفنا عدم إتباع هذه القاعدة بمنطقة المطارفة مثلاً رغم أنها كانت متبعة في السابق. لكن قد يجد هذا الأمر تفسيراً له في التباعد الموجود بين قصور هذه المنطقة.

19- شيخ زاوية بانديلو.

20- نعتقد أن كل زاوية تشعر بأنها مستعدة مادياً ومعنوياً وقادرة على التكفل بالضيوف من جميع الجوانب فإنها تجب أن يزداد عدد الضيوف الذين يرجعون منبهرين ومعجبين بما حظوا به من إقبال وإقامة والذين بدورهم لا ييخلون في مقابل كل هذا أن يقومون بدعاية مباشرة للزاوية وأهلها وسواء كانوا من داخل المجموعة أو من خارجها. ولذلك فإننا نرى هذا الأمر ينطبق على جميع الزيارات بغض النظر عن المعنى بالزيارة ومن يقيم له هذه الزيارة.

21- ينمو في السنين الأخيرة تعاون كبير بين السود خاصة في المناسبات وأول معنى لهذا التعاون هو إظهار الوحدة والتآزر بينهم وأنهم قادرون على القيام بأمورهم بأنفسهم.

²² - في سنة 2007 بعد ثلاثة أيام من وفاة أحد الأقارب أي في اليوم الذي يستكمل فيه بناء وتغطية القبر وهو ما يعرف بيوم العود ربما نسبة إلى غصن الرمان أو غصن شجرة النخيل الذي يوضع على القبر، وبعد الانتهاء من العملية ومجيء وقت الختمة والفاحة قال المرابط الوحيد الذي كان حاضراً والمتعود على رفع الفاتحة في مثل هذه المواطن وغيرها مبدياً عدم رضاه كون القائمين بالعملية لم يستدعوه للختمة: ... الشريف هو الذي يتولى هذه المهمة وإذا لم يكن فأنا أتولاها لأن عمل هذا الميت لا يرفع إلى السماء ولا يقبل بل يبقى متوقف على دعوة الشريف أو المرابط.

²³ - في الفاتحة الختامية لموسم 2008 لزيارات العبيد "الدامسعود" بعرض دلل دول التي تقام بإقسطن أين يوجد قبر بارز للدامسعود لاحظنا أن الذي رفع الفاتحة هو من العبيد ولم يسأل أحد عن وجود أصحاب الفاتحة الحصريين رغم حضور أحد المرابطين البارزين. حيث لم يكتفي بالفاتحة فقط بل ذكر بعض الطلبات المقدمة لهم من أجل أن يذكرها على الحضور أثناء الفاتحة ويدعوا لأصحابها. حيث أن الرهان هنا هو ليس على أي شخص وإنما على فئة العبيد.

²⁴ - شيخ زاوية بابلال.

²⁵ - شيخ زاوية بابلال.

²⁶ - أحد الشيوخ من هذه الفئة أخبرنا بقصة قدوم والده أو جده إلى المنطقة وأنه ذو قدر وجاه في بلاده الأصلية.

²⁷ - شيخ زاوية بابلال.

²⁸ - أمام غياب الدليل عند من يظهر أنه يدعي الانتماء إلى الأحرار وحتى الأشراف إذا ما أخذنا مفهوم الأحرار على المعنى العام وهم البيض بصفة عامة.

أما إذا حملنا لفظ الأحرار على معناه الضيق فإن هذا يقودنا إلى توضيح هذا الموقف الخاص من فئة الأحرار والذي يشترك فيه العديد من السود حيث يرون عدم موجود مبرر لهذه الفئة. مادام ليس هناك شيئاً يميز أفرادها باستثناء لون بشرتهم وهو الأبيض. بل أكثر من هذا فهم يعتقدون أن هذه الفئة لا يخرج منها ولي صالح على الإطلاق ويروون قصصاً مدعمة لموقفهم. بل هناك من لا يعترف بوجود فئة المرابطين والجدير بالاحترام والتقدير هم الأشراف فقط.

²⁹ - ابن شيخ زاوية بابلال.

³⁰ - شيخ زاوية بابلال.

³¹ - شيخ زاوية بابلال.

³² - شيخ زاوية بابلال.

³³ - ابن شيخ زاوية بابلال.

³⁴ - شيخ زاوية بابلال.

³⁵ - شيخ زاوية بانديلو.

³⁶ يقول أحد المكلفين بزيارة الزيتوني: " أصحاب البارود ولا الحضرة هما ماجاونا وحنما ما طلبناهم. وراهم

موجودين هنا صحاب البارود ولي جاو يخسرو لنا"

³⁷ - حتى أن عبارة الله يخلف التي تقال للمضيف بعد أكل طعامه مباشرة أو لحظة مغادرته بقينا مدة من

الزمن نفهمها على أن الطعام الذي أكلناه عندك ندعو الله أن يخلفه لك عندنا في المستقبل وهذا بحسب

السياق المحلي الذي تستعمل فيه. ولا زالت توحى لنا - بعيداً عن معناه اللفظي ومعناه الاصطلاحي إن

وجد- وتذكرنا بالبعد المادي والدينيو للقيمة العيش أي أن هذه الأخيرة ما هي إلا دينا بالنسبة لكلا

الطرفين. كما نشير هنا إلى أن تحليلنا هذا يخص فقط العبارة السالفة الذكر نظراً لكثرة استعمالها والكيفية

التي تقال بها.

³⁸ - شيخ زاوية بابلال.

³⁹ - من المؤشرات على هذا التغير الذي عرفته السنين العشرة الأخيرة هو إقبال الناس على إنشاء

مقاولات بناء بالخصوص وكذلك سعيهم إلى الاستفادة من المشاريع المقدمة في إطار الفلاحة. فضلاً عن

الاهتمام بجيازة الأراضي وشراء المركبات بمختلف أصنافها.

⁴⁰ - في الحقيقة لا تتعلق شروط الضيف على المضيف بلقمة العيش فقط (كل ما يأكل أو يشرب) وإنما

بكل مستلزمات الضيافة. أي من الوقت الذي يحل الشخص ضيفاً في مكان ما إلى الوقت الذي يغادر

فيه. ولذلك تشمل هذه الشروط تهيئة محل استقبال واسع ومستقل عن البيت العائلي (يتضمن بالضرورة

مرحاض أما الحمام فيكون محبذاً ومطلوباً أيضاً)، توفير الأغذية الكافية بحسب الفصول الصيف أم

الشتاء، المأكولات وعلى رأسها لحم الخروف أو الغنم إضافة إلى الملفوف الذي عليه مدار كل شيء ثم

الفواكه والمشروبات.

من هذه الشروط أيضاً أن الضيف يجذب إبقاء محل الضيافة مفتوحاً ليلاً ونهاراً حتى يتسنى له التصرف بحرية

تامة. نلفت الانتباه إلى تلك الظاهرة التي بدأت تنمو شيئاً فشيئاً وهي أن الضيف ينزل عند شخص ما

ومعه فكرة أنه من واجب المضيف أن يوفر له إقامة جيدة وفي المستوى دون مراعاة للظروف ولا الطاقات.

الزيارة بأدوار: أشكال التميز و التمثلات الهويةية

والسبب هو الولي الذي جاء الضيف بمناسبة زيارته ولذلك يتحتم على المضيف إكراما لذلك الولي وتعظيماً لقدره أن يكرم ضيوفه ويعزهم. وهذا ما يجعلنا نلخص إلى النتيجة التالية وهي أن الزيارة أصبحت أداة مستعملة من طرف الضيف من أجل إرغام المضيف - ولو ضمناً - على تلبية حاجاته ورغباته.

ومن مظاهر هذه الظاهرة هي أن الضيف لا يحترم وقت تناول وجبة معينة ثم يأتي عند شخص ما ويجلس بجانب الضيوف الذين سبقوه إلى المحل وهكذا يدفع المضيف إلى أن يسأله هل يحضر له شيئاً ما من الطعام أم لا أو يطلب هو شخصياً سراً أو علانية ذلك من المضيف. شيء آخر شديد الصلة بهذه الحالة هي أن يتناول الضيف وجبة ما وخاصة الغذاء أو العشاء عند مضيف ما ثم يذهب عند شخص أو شخص آخرين، غير مبال بالوقت، ويقدم نفسه على أنه لم يتناول تلك الوجبة عند أي شخص. وهكذا فإن الذي يحرج ويكون موضع اختبار هو المضيف وليس الضيق. وبهذا نستطيع القول أن الضيف يمتلك عدة أساليب وطرق من أجل أن يجعل منطقته يتغلب على منطق المضيف.

41 - مبحوث من البركة دلدول.

42 - مبحوث من البركة دلدول.

43 - قد ينطبق هذا الأمر على بعض الأشخاص كتلاميذ المدارس النظامية والقرآنية والمتكويين والمتمهين وحتى الجامعيين والموظفين بحيث أن الخاصية المشتركة لهؤلاء هي أن يكونوا غرباء عن أماكن سكنهم وكذلك أوضاعهم الاجتماعية والمادية (سوء المعيشة، منطقة معزولة أو الحياة فيها صعبة، تراكم الديون وعدم تقاضي الأجرة في وقت محدد...).

44 - مبحوث من توكي دلدول.

45 - تجدر الإشارة هنا إلى ما يتردد على ألسنة بعض الأفراد عندما يسمع بخبر الزيارة في المكان الفلاني أو عندما يسأل عن عزمه على الذهاب إلى زيارة ما أم لا فيجيب لا بد أن أذهب هذا العام لأن فلان سينتظرنا وإذا لم نذهب فسيلومنا أو كيف في زيارتنا جاء ولا نذهب في زيارتهم! فلا بد أن نذهب.

46 - لا تزال ظاهرة تنقل الفتيات بالأخص والنساء عموماً ليلاً لحضور الحضرة أو البارود موجودة في بعض المناطق. وإذا كن يفضلن الليل نظراً لارتباطه بالستر فإنهن يتحولن إلى لقم صائغة للشباب. غير أن هذه الظاهرة (المشي ليلاً على الأقدام) هي في تناقص بسبب ازدياد وسائل النقل (السيارات النفعية...).

47 - مشرف على إحدى الزيارات بقصر الحاج أوقروت.

48 - مبحوث من الساهلة المطارفة.

49 - مبحوث من توكي.

50- خلال تواجدها مع المشرف على زيارة بانديلو جاءه شخص وأخبره بأن هناك زيارة تصدق بها أحد الأشخاص وهي موجودة في المكان الفلاني فاقترح عليه أن يقصد شخصاً لأستأجره من أجل إحضارها وهي عبارة عن خروف أوكيش. وهذا ما يدل على أن الزيارات لازالت تقدم عيناً بينما يشكي أصحاب زيارات آخرين من تراجع هذا النوع من الزيارات.

قائمة المصادر والمراجع:

* باللغة العربية

- 1- أحمد الحمدي، المختار الكبير الكنتي. التصوف والعلم بأزواد إفريقيا، جمعية البيت للثقافة والفنون، الجزائر 2009.
- 2- ديل إيكلمان، الإسلام في المغرب، ترجمة مُجَّد أعفيف، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1991.
- 3- الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الجمعية المغربية للبحث، ط1، 1997.
- 4- زهية جويرو، الإسلام الشعبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، فبراير 144، 2007ص. 10/الصدديق حاج أحمد، التاريخ الثقافي لإقليم توات، مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2003. الحسن بن مُجَّد الوزان الزياتي (جان ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، (تر: عبد الرحمن حميدة)، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام مُجَّد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية
- 5- عاشور سرقمة، الرقصات والأغاني الشعبية بمنطقة توات، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، (ب.ت).
- 6- عبد الغاني منديب، الدين والمجتمع، دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، 2006، بدون ط.
- 7- عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي، منطقة عين الصفراء نموذجاً، دار الأديب للنشر والتوزيع، (ب.ت).
- 8- عيسى لطفي، مدخل لدراسة مميزات الذهنية المغاربية خلال القرن 17م، سراسر للنشر، تونس، 1994.
- 9- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 42، 1984.

- 10-لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي، دار سراس للنشر، تونس، 1993.
- 11-مُحَمَّد الجوة، الإنسان والمقدس، دار مُحَمَّد علي الحامي للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 1994. 8/
- 12-مُحَمَّد الجويلي، الزعيم السياسي في المخيال الإسلامي بين المقدس والمدنس، دار سراس للنشر، تونس، 1992.
- 13-محمود عبد الرشيد بدران، التنظيمات الصوفية وتنمية المجتمع، دار فرحة للنشر والتوزيع، المنيا، مصر، 2006.
- 14-نور الدين طوالي، الدين والطقوس، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1 1988.

الرسائل والمذكرات

- 1- خديجة الزاوي، البعد السياسي لتجمع النساء عند الأولياء الصالحين في منطقة الأبيض سيد الشيخ، رسالة ماجستير في قسم علم الاجتماع، جامعة وهران. 1998.
- 2-المهادي بوشمة، الوعدة التمثل والممارسة، دراسة أنثروبولوجية بمنطقة أولاد نهار، وعدة سيدي يحي بن صافية نموذجاً، قسم علم الاجتماع، جامعة وهران، 2005-2006.
- 3-العربي بوعمامة، الكرامة الصوفية، البنية والدلالة في المدونة والميدان الجزائريين، قسم علم الاجتماع، جامعة وهران، 2005-2006.
- 4-الصدیق ثياقة، النمط المعماري للمدينة الصحراوية (القصر) ووظيفته الاجتماعية، مذكرة ماجستير، قسم علم الاجتماع، جامعة وهران، 2005-2006.
- 5- لحسن رضوان، الدور التربوي والاجتماعي لزاوية سيدي بلكبير، مذكرة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2004/2005.
- 6-أحمد جعفري، نظام الفقارة وآلية توزيع الماء في منطقة توات وأثره على مختلف التحولات الاجتماعية لسكان الإقليم، دراسات تراثية، عدد1، 2007، دار الملكية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام

1. باللغة الأجنبية

- ¹- Hassan Rachik, *Sacré et sacrifice dans le haut atlas marocain, Afrique orient, Casablanca, Maroc, 1990*
- ²-Abdelhamid Hénia, *Etre notable au Maghreb. Dynamique des configurations notabliaires, Maisonneuve & Larose, 2006.*
- ³-Ahmed Moro et Bernard Kalaora (S.D), *Le désert : le vivant et le sacré, l'Harmattan, Paris, 2005.*

- ⁴- Basset René, *La religion des berbères*, Éditeur Ernest Leroux, Paris, 1910, 58p (livre peut être consulté ou téléchargé sur le site : <http://www.algerie-ancienne.com>).
- ⁵- Bourdieu Pierre, *Le sens pratique*, les éditions de Minuit, Paris, 1980.
- ⁶- Doutté Edmond, *Marabouts*, Éditeur Ernest Leroux, Paris, 1900, 128p (livre peut être consulté ou téléchargé sur le site: <http://www.algerie-ancienne.com>).
- ⁷- Doutté Edmond, *Magie & religion dans l'Afrique du Nord*, Éditeur Typographie et Lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1909, (livre peut être consulté ou téléchargé sur le site : <http://www.algerie-ancienne.com>
- ⁸- Durkheim Emile, *les formes élémentaires de la vie religieuse*, Quadrige/PUF, France 4^{ème} édition , 1994.
- ⁹- Lahouari Addi, *Sociologie et anthropologie chez Pierre Bourdieu, La découverte*, Paris, 2002.
- ¹⁰- Houari Touati, *Entre Dieu et les hommes*, Paris, Ed. de l'Ecole des hautes Etudes en Sciences Sociales, 1994.
- ¹¹- Rachid Bellil, *ksour et Saints du Gourrara*, C.N.R.P.A.H Algérie. 2003
- ¹²- Coÿne, *Le Sahara de l'ouest, étude géographique sur l'Adrar et une partie du Sahara occidental*, in *Revue Africaine*, volume 33, année 1889, A. Jourdan, Libraire - Éditeur, Alger, p1-95 (**revue peut être consultée ou téléchargée sur le site:** <http://www.algerie-ancienne.com>).
- ¹³- Maria Catedera, " L'invention d'un saint", symbolisme et pouvoir en Castille, in *Terrain* n°24, 1995 mis en ligne le 07/06/2007 URL: <http://terrain.revues-org/index3112.html>
- ¹⁴- Rachid Bellil, *Le sacré et le politique: les zénètes du Gourrara, leurs saints et l'ahellil* in *Insaniyat* n° 11, Mai-Aout 2000(vol.IV,2),
- ¹⁵- Raymond Jamous, " faire", "défaire" et " refaire" les saints in *Terrain* n° 24, 1995,
- ¹⁶- Salim Khiat, *La confrérie noire de Baba Merzoug: la sainteté présumée et la fête de l'équilibre* in *Insaniyat* n° 31, Janvier-Mars 2006,